

maktabbah.blogspot.com

رولا خرسا

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

مَحَبَّةً مِّنِي

أثر العائلة في حياة الأنبياء

دار ذون

مكتبة

بيت الصغيرات

maktabbah.blogspot.com

رولا خرسا

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي

أثر العائلة في حياة الأنبياء

دُون



للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الله.. إليك يا ربي أهدي كتابي.. فأنت وحدك نوري
عندما تظلم الدنيا حولي.. أنت وحدك اليد التي تمتد لي عندما
تختفي الأيادي الممسكة بيدي.. أنت وحدك النجدة والأمان
عندما يسيطر الخوف على أيامي.. إليك يا الله أهدي كتابي..

بكل الحب والامتنان على حبك الذي يملأ روحي، والذي
لا فضل لي فيه أبدًا.. فأنت واضعُ الحب في الفؤاد الذي أنت
خالقه.. أنا صنيعتك التي تتمنى أن تكون ممن تقول عنهم
﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (سورة المائدة - الآية ٥٤).

أنت السند.. الأقرب إليّ من حبل وريدي.. ليس لي سندٌ
في الحياة سواك.. صابرة لحكمك فأنا بأعينك.. وهل من مكانٍ
أأمن منه؟ مسبحة بحمدك، أأست وحدك كافيًا أمّتك؟

اختر لروحي صراطًا مستقيمًا.. وذكّر قلبي أن يذكرك دومًا..
أنت معي أينما كنت.. فيارب هب لي حكمًا وألحقني بالصالحين..
وتولني فيمن توليت وثبت قلبي على محبتك، وذلك عليك هيّن..
حسبي الله نعم الوكيل والسند والرازق والرحمن الرحيم وأنت
عند ظن عبيدك بك وظني بك يا ربي جميل.. يا رب أسألك حبك
وحب من يحبك وأن تجعل كتابي هذا نافعًا للناس وسببًا يبلغني
حبًا أكثر منك.. اللهم استجب.. اللهم تقبل..

رولا خرسا

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أول كلامنا دومًا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. آية صغيرة نبدأ بها كل سُور القرآن الكريم إلا سورة التوبة، والتي تُسَمَّى أيضًا بسورة "البراءة" لأسباب ذكرها العلماء ولا مجال لذكرها هنا..
بسم الله نبدأ، وعليه نتوكل وسبحانه
اختار لنفسه اسمًا، هو «الله»، وانفردَ به،
لا يجزوُّ أحد على تسمية نفسه به وإن
كان كافرًا أو ملحدًا..

«الله» اسمٌ يحمل كل صفات الكمال والجمال والجلال..
صاحب القدرة التي لا يملكها غيره، اسمه فيه تفرد وعظمة.
عندما قال سبحانه: «بِسْمِ اللَّهِ» جمعٌ في كلمة «الله» بين كل
أسمائه، التي نعلمها والتي لا نعلمها. لم يقل بِسْمِ القوي أو
الودود أو الجبار أو الرزاق أو الوهاب، أو أيٍّ من أسمائه، بل
قال: «بِسْمِ اللَّهِ»؛ لأنَّ «الله» اسمٌ جامع لكل الأسماء الحسنی،
ولكل الصفات التي نعرفها والتي لا نعرفها..

لله قدراتٌ لا يملكها بشر؛ لذا فلقد وجَّه إلينا رسالة واضحة
بأننا في حالة استعانة مستمرة بهذه القدرات عندما بدأ سبحانه
بها كل سورة، أي إن البدء يجب أن يكون دومًا بالاستعانة به،
والاستعانة بأسمائه، وبقدرته العليا..

أصل كل شيء والبدء بكل شيء يكون في معيَّته، أيًا كان
الهدف، نستعين بالله. وفي لفظ الجلالة اختصارٌ لكل الأسماء،
ولكل اسم مددٌ وقوة نشحن بها أنفسنا.

ولفظ الجلالة (الله) هو الاسم الذي يحمل كل الصفات، من
المفترض أن يكون الغني عن التعريف، اختص به الخالق نفسه
دون سواه، فهو الإله، أي المعبود..

يأتي بعد اسم الله صفة «الرحمن»، و«الرحمن» هو اسمٌ من
أسماء الله الخاصة به، لا نصف بشرًا أبدًا بـ «الرحمن». الله خَصَّ
نفسه بهذا الاسم أو هذه الصفة، ومعناه ذو الرحمة الواسعة،
و«الرحمن» صفة مبالغة، وأنا أفسرها بأن رحمة سبحانه أكبر كثيرًا

من كل رحمة موجودة على الأرض ومن قدرات أكثر البشر رحمة..
الرحمن هو أخصُّ أسماء الله بعد لفظ الجلالة، هو مَنْ يرحم
جميع المخلوقات، كل ما على الأرض أو في الوجود، وصفة الرحمة
هي أخصُّ صفاته؛ لذا يأتي غالباً ترتيبها في الخصوصية بعد لفظ
الجلالة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ في الآية
١١٠ من سورة الإسراء، أي إنه سبحانه قد ساوى بين الاسمين
«الله» و«الرحمن».

وبعد «الرحمن» في "بسم الله الرحمن الرحيم" نجد «الرحيم».
و"الرحيم" اسم آخر من أسماء الله الحسنى، ومعناه الموصل
رحمته إلى عباده.

«الرحيم» كصفة بين بني البشر يُقال فيها: هو مَنْ امتلك رقة
في القلب وكان متسامحاً، معاوناً، لطيفاً، عطوفاً.

و«الرحمن» أبلغ من «الرحيم»، فهو اسمٌ يختص بالله عز
وجل، ولا يجوز إطلاقه على غير الله. وقال العلماء إن الرحمن
جاءت قبل الرحيم لأن «الرحمن» للدنيا يرحم بها الله المؤمن
والكافر؛ أما «الرحيم» فهي للمؤمنين فقط في الآخرة.

المهم أن «الرحمن» و«الرحيم» كليهما من الرحمة، ولأن
الرحمة أعلى الصفات وأكثرها شمولاً؛ فقد أكد عليها الله سبحانه
بالجمع بين الرحمن والرحيم.. جمع بين الرب والعبد، ونحن منه
وإليه، وكأنها أهم صفة مستمدّة من الخالق يجب أن تكون في
خلق الله..

لم يقل سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ موجهة للمسلمين فقط، بل جعلها عامة.. لذا فـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» تعني أن رحمته وسعت الجميع.

هو «رحمن الدنيا والآخرة».

«الرحمن» و«الرحيم» من الرحمة

والرحمة مشتقة من الرحم.

ولأنه الأول والآخر «فالرحمن» دوماً يسبق «الرحيم»..

«الرحمن» و«الرحيم» تقتضيان مرحوماً، أي شخص يرحمه

الله سبحانه، ونحن كبشر جميعاً نحتاج الرحمة لأننا ضعاف،

خطأؤون، ولهذا نقول عن مات: «المرحوم»، كم في هذه الكلمة

من تيقن بمصير مقترن برحمة الله سبحانه.. يموت من يموت،

فنخفف عن أنفسنا ألم فقدته بتسميته «المرحوم»، أي الذي ذهب

إلى «الرحمن الرحيم»..

والله سبحانه عالم بحالنا، عالم بضعفنا، عالم بما في قلوبنا

من آلام وما في نفوسنا من صراعات ومحاولات اجتهاد وما في

أرواحنا من محاولات ارتقاء وسمو؛ لذا طلب منا أن نكون رحماء

بأنفسنا وبغيرنا. أن نكون لبعضنا سنداً.

ولأننا نحتاج بعضنا البعض، ونحتاج رحمة الآخرين لنا

وبنا، كانت فكرة كتابي هذا عن السند.. فالسند رحمة.. واخترت

السند العائلي لأن الأقربين أولى بالسند بحكم رباط الدم أو

الرَّحِمِ..

وبعد هذه المقدمة البسيطة أتوقف أمام أمر هام، هو تعريف بطبيعة الكتب التي أكتبها لكم.. هذا هو كتابي الثاني في هذا الطريق. الأول كان "فضحكت فبشرناها" والثاني بين أيديكم الآن وهو "والقيتُ عليكَ محبةً مني" .. أنا أكتب سيرة أبطال هم شخصيات دينية.. لن أملّ من تكرار أني لست برجل دين أو قسيس أو حاخام.. وأنى لا أناقش قضايا دينية أو أقدم فتاوى.. أنا باحثة دارسة للأدب والتاريخ، ومؤمنة بالروحانيات التي هي أساس الأديان المختلفة، وبقدرتها على جعلنا أشخاصاً أفضل.. الدين يبقى حروفاً إن لم يكن مصحوباً بنور في القلوب وبصيرة في العقول.. وتصرفات خلوقة تترجم على أرض الواقع..

أنا أيضاً مؤمنة أننا على الأرض في مهمة.. لكل منا مهمته الخاصة، وأنا مهمتي نشر ولو قدر بسيط من المعرفة بأشخاص أثروا حياتنا.. وأناروا قلوبنا ووجداننا..

المتابع لكتبي سيجد أني حريصة على الحديث عن شخصيات من الأديان السماوية المختلفة كي لا يتم التركيز على انتمائي الديني أكثر من كتاباتي.. فالدين لله وما أكتبه للجميع..

أيضاً أودُّ أن أرسخ لفكرة الطريق الذي انتهجته وهو مزج التاريخ بشخصيات روحانية.. هذا لا يعني إطلاقاً أني أكتب رواية أو خيالاً.. بل هي سير حقيقية اعتمدت فيها على المصادر والمراجع.. وغربت ما من شأنه أن يمس بقدسية أي أحد.. فأنا من مدرسة تؤمن بضرورة المعرفة والتنوير.. ولكن مع احترام

تام للأنبياء..

باختصار: أنا باحثة مهتمة بالسير الذاتية في موضوعات لا تتوفر الكثير من المراجع عنها.. لذا فالأمر ليس سهلاً.. ولأنه ليس بالسهل فقد أحببته.. أحب التعرف وبالتالي تعريفكم أكثر على شخصيات حاولت نشر نور في الظلام..

في المراجع قد تختلف بعض الأسماء أو حتى دقة التاريخ؛ لذا قد أضطر لاختيار مصدر من اثنين معتمدين على قوة المرجع أو تكرار المعلومة في مصدر آخر.

وبعد زوجات الرُّسُل فكرت في البقاء في النطاق العائلي؛ لذا اخترت فكرة السند العائلي؛ الأم، الأب، الأخت، الأخ، الابنة، الابن والزوجة.

ولأنني أم فقد خصصت أكثر من حكاية لأمهات لقناعتي أن لا علاقة تشبه علاقة الأم بأولادها.. ولأن الابن أو الابنة القادمين إلى الدنيا من رحم الأم يبقيان جزءاً من الأم حتى بعد قطع الحبل السري..

حتى الأم البديلة أفردت لها قصة: السيدة آسية بنت مزاحم فبعض السيدات كن أمهات حقيقيات لأولاد لم يأتوا من رحمهن.. ولكن ملأ الله قلوبهن رحمة فكن خيرَ سندٍ.. والعكس صحيح بالتأكيد أيضاً..

ولأننا نشقى سواء بأيدينا أو بسبب ابتلاءات خالقنا فإننا دومًا وأبدًا نحتاج إلى السند. والسند في حياتنا رحمة. فإن كان

سبحانه هو وحده من يحبنا على عيوبنا، يقبلنا ويمدنا برسائل
وأَسباب كي نكون أفضل، فإنه أيضًا يرسل إلينا على الأرض
دومًا من يكون لنا سندًا ورحمة..

وسند الله لنا له صورٌ متعددة

فرزقه سند ورحمة..

وجبره لقلوبنا وخواطرنا سند ورحمة..

وما يهبه لنا من نعم سند ورحمة..

ما ظهر منها رحمة وما خفي ولا نعرفه سند ورحمة..

قبوله لتوبتنا سند، ورحمته بنا وعفوه عنا رحمة..

والباب الذي لا يُوصد أبدًا هو باب الرحمة..

وهل من باب أوسع من رحمة الله نلجأ إليه؟ قالها يونس

وهو في بطن الحوت، فنجّاه سبحانه من الغم:

"يا رحمن يا رحيم برحمتك أستغيث".

الأنبياء أنفسهم احتاجوا بعد الله سندًا في الدنيا

لا أحد يستطيع أن يعيش على الأرض دون سند..

الأهل سند..

الزوج سند..

الابن سند..

ومن الصعب ألا تجرب نوعًا من مختلف أنواع السند.. لو

أن عنصرًا واحدًا من هؤلاء نقص ستشعر بخلل وستبحث عن

تعويض.. لا أحد يأخذ مكان أحد..

لنكن دومًا لبعضنا البعض سندًا.. ونتراحم، فالرحمة بين
البشر تقوم بالمعجزات. الحياة صعبة جدًا، باختباراتها وابتلاءاتها،
ولا شيء يهون علينا الطريق سوى الرفيق وخير رفيق، رفيق
داعم يسندنا وقلب تملأه الرحمة يحتوينا..

هذا الكتاب أنقله إليكم مصحوبًا بمحبتتي لكم.. أرجو
أن تتقبلوه وتردوا إليَّ المحبة مضاعفة.. ففي الحب يكون الربا
حلًا..

ولأني أم؛ فقد خصصت أكثر من حكاية لأمهات، لقناعتي
أن لا علاقة تشبه علاقة الأم بأولادها.. ولأن الابن أو الابنة
القادمين إلى الدنيا من رحم الأم يبقيان جزءًا من الأم حتى بعد
قطع الحبل السري.. ولم أنس بالطبع أشهر أمّ في التاريخ السيدة
مريم، ولكنني شعرت أنها تحتاج إلى كتابٍ بأكمله.. فقررت أن
أخصص لها كتابًا مستقلًا خاصًا بها وحدها لاحقًا.

السند - الأم

(١)

يوكابد بنت لاوي بن عمرام بن قهات

بن لاوي بن يعقوب

أم موسي

- ١ -

"أنا الرب. إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.. لأنني أنا الرب إلهك إله غيور".

الوصية الأولى من الوصايا العشر. [٢ - ٥].

سفر الخروج - الإصحاح ٢٠.

على الأرض التي أعطاها يوسف لأبيه يعقوب وإخوته عندما أحضرهم من أرض كنعان، فسكنوا فيها واستقروا نحو مائتي سنة هم وذريتهم من بعدهم، وُلدَ موسي..

وُلِدَ في قرية «قتير» إحدى القرى التابعة لمركز فاقوس بمحافظة الشرقية اليوم، تمتد من أبي زعبل إلى البحر، والمجرى المائي المتواجد بها هو اليم الذي أمر الله أم موسى بإلقائه فيه. هذه البقعة المقدسة كانت تسمى "أرض جاسان"، وتُعرف في الوقت الحالي باسم قرية "صفت الحنا" لاشتغال أهلها بالحناء.. وكلمة جاسان في اللغة العبرية هي (جوش).. لم يتوصل أحدٌ من الباحثين إلى معناها، ولكنها تُرجمت في اللغة اليونانية إلى "الأرض المزروعة"، ويرى بعض علماء المصريات أنها آتية من الكلمة المصرية القديمة "قاس" التي تعني "الأرض المغمورة بالماء". بينما أرجعها البعض في اللغة العربية إلى كلمة (جشم)، تجشم أي تحمّل المشقة، وذلك بسبب إقامة العبرانيين بها وقت اضطهادهم من المصريين.

أتى بنو إسرائيل مع يعقوب إليها، وعاشوا على أرضها وتكاثروا.. إلا أن مصر بعد وفاة النبي يوسف ضعفت. هجم الهكسوس على البلاد فأضعفوها.. تعاون معهم العبرانيون، فغضب منهم المصريون، واعتبروهم عملاء. حتى جاء الملك أحس وحرّر مصر، ولكن لم ينس المصريون خيانات بني إسرائيل، فاستعبدوهم واستخدموهم في السُّخرة والأعمال الشاقة مثل بناء المدن.

لم يغفر المصريون للحاضرين ما فعله السابقون.. وكم من شعوبٍ توارثت أخطاء شعوب سبقتها.. فالآباء يأكلون الحصرم

والأبناء يضرسون.

وصلت معاناة بنو إسرائيل إلى ذروتها بعد أن اشتد ظلم
الحكام وتعنت المصريين معهم.. كانوا يصلون ليل نهار يطلبون
من الله مخلص يحررهم من عبوديتهم ومن تعذيب المصريين لهم..
وبدا كهنة بني إسرائيل يخففون عن الناس ثقل حياتهم
بتذكيرهم بوعد الرب بمجيء قريب لنبي منقذ ومحرر.

تزامن هذا مع حلم لفرعون بالنار تحرق كل بيوت المصريين
في بلاده ولا تمس بيوت بني إسرائيل.. كان حلمًا غريبًا استيقظ
منه منزعًا فطلب المفسرين الذين قالوا له:

- "إن طفلًا عبرانيًا سوف يُولد يتسبب في ضياع مُلكك".

ثارت نائرة الفرعون وأصدر أوامره بقتل كل طفل من بني
إسرائيل يُولد على أرضه..

كان مقتنعًا أنه قادر على تحدي القدر..

وكم من بشرٍ صوّرت لهم نفوسهم قدرتهم على رسم
المستقبل بأيديهم متناسين أيادي القدير.

"لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما
في السماء من فوق وما في الارض من
تحت وما في الماء من تحت الارض، لا
تسجد لهن ولا تعبدهن، لأنني أنا الرب إلهك
إله غيور".

الوصية الثانية من الوصايا العشر (خروج ٣٢: ١ - إصحاح ٢٠).
يرجح أنه ما بين عام (١٢٣٤ و ١٣٠١ ق.م) وُلد موسى..
أبصرَ النور في أرض جاسان من رحم يوكابد بنت لاوي الملقبة
بـ "المتوكلة"، وقد صدق من أطلق عليها هذا الوصف.
قيل أيضًا إنَّ اسمها "يحاند بنت يصهر بن لاوي بن
يعقوب"، وقيل إنَّ اسمها "أباذخت"، إلا أنَّ الرأي الغالب أنَّ
اسمها "يوكابد بنت لاوي بن يعقوب عليه السَّلام"، فهو الاسم
الأكثر شيوعًا..

والدها هو لاوي ابن نبي الله يعقوب، وبالتالي فإن نبي الله
يوسف هو عمها.

"يهوة مجد" يوكابد اسم عبري معناه أول شخصية في
الكتاب المقدس اسمها مركَّب من "يهوة أو يو".

وُلدت يوكابد في مصر وعاشت فيها. تزوجت من عمران
- وينطقه البعض عمرام - بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه

السَّلام، الذي وُلِدَ أيضًا في مصر^(١).

هي ابنة لاوي وتزوجت ابن لاوي^(٢) "عمرام" و معناه "عم مُرتفع"، أي إنها تزوجت ابن أخيها، فكانت هي الزوجة والعممة لعمرام^(٣). كان منتشرًا في الشرق في تلك الأيام الزواج بالعمات وبنات الإخوة، ولم يكن هذا التصرف محرّمًا قبل أن تنزل الألواح على موسى في الشريعة اليهودية^(٤).

أُنجِبَت يوكابد لعمران مريم ثم هارون، وبعده بسبع سنوات موسى عليه السَّلام. فيما تقول روايةٌ أخرى إنَّ موسى وُلِدَ بعد هارون بسنةٍ واحدةٍ. وروايةٌ ثالثةٌ بعده بثلاث سنوات. كانت يوكابد زوجةً صالحةً مؤمنةً، من بني إسرائيل.. تعيش مثلهم تحت سطوة حاكم ظالم يخاف على مُلكه من قادمٍ أتاه في الحلم، لا يعلم عنه شيئًا سوى أنه سيكون واحدًا من العبرانيين كما كان يُطلق عليهم.

والعبرانيون هم خليط من الشعوب الآسيوية السامية القديمة الذين يرجع نسبهم إلى سام بن نوح..

ينسب اسمهم إلى عابر، أحد أجداد النبي إبراهيم الذي أتى بهم إلى فلسطين ومنحهم اللقب: "الكنعانيون"، إذ أسموا

(١) وَاسْمُ امْرَأَةِ عَمْرَامَ يُوْكَابُدُ بِنْتُ لَأْوِي الَّتِي وُلِدَتْ لِلاَّوِي فِي مِصْرَ، فَوَلَدَتْ لِعَمْرَامَ هَارُونَ وَهُوَ سَيُّوْمَرْيَمَ أُخْتَهُمَا». (سفر العدد ٢٦: ٥٩).

(٢) سفر الخروج (خر ٢: ١).

(٣) سفر الخروج (خر ٦: ٢٠).

(٤) كتاب «زوجات الأنبياء»: د. مصطفى مراد، عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر.

إبراهيم إبرام العبراني بعد أن عبرَ نهر الفرات إلى فلسطين.
يعتقد أن عمران رُزق بهارون وهو في الثمانين من عمره،
وأنه عاش حتى بلغ المئة والسبع وعشرين سنة..

لا يعرف كثيرًا عن حياة الزوجين سوى أنها كانا من
العبرانيين، من بني إسرائيل. كانا يعتنقان الديانة الإبراهيمية،
أي من الموحدين، يتبعون ملة النبي إبراهيم وإسحق ويعقوب،
وأنهما كانا مثل الكثيرين من بني إسرائيل من العبيد^(١)..

ولادة مريم وهارون جاءت في ظروف عادية، وطبيعية، أما
موسى فقد وُلدَ بعد نبوءة حلم فرعون.

لحكمة من الله تعالى لم تظهر على أم موسى علامات الحمل
كغيرها من النساء، ووضعت حملها وسط هذه الظروف الصعبة.
مثل كل الأمهات في تلك الفترة الزمنية القاسية عانت من
تهديد قتل رضيعها على يد جنود فرعون،

كانت خائفة من كل من حولها، لا تجرؤ على الثقة في
أحد.. فمن يضمن عندما يكون الحاكم ظالمًا وناشرًا للذعر بين
صفوف شعبه، من يكون معك ومن يكون عليك؟ الجواسيس
ينتشرون في كل مكان ومثل كل عهد وزمان، يبيع الناس بعضهم
البعض من أجل النقود.

رأت القابلة؛ وهي السيدة التي تساعدها على الولادة خوف
يوكابد، فأشفقت عليها ووعدتها أن تكتم أمرها.. ربما لأنها كانتا

(١) وَلَمَّا رَأَتْهُ أَنَّهُ حَسَنٌ ۖ ٢:٢.

تعملان في نفس المجال.. إذ كانت يوكابد أيضًا قابلة وكانت تأخذ معها ابنتها مريم دومًا وهي تقوم بعملها.. وعلى الرغم من هذا اقتحم رجال فرعون منزلها ما إن أبصروا القابلة تغادره.

كانت مريم تلاعب أخاها هارون أمام المنزل عندما لمحت الحرس يقتربون، فهرعت لتحذر أمها التي ألهمها الله أن تلف الوليد بسرعة في خرقة مبللة وتلقيه في جوف التنور أو "الفرن" دون أن تدري ماذا كانت فاعلة.

دخل الحرس.. بحثوا عن الطفل.. لم يجدوا أحدًا، فانصرفوا. ركضت الأم لترى ماذا حلّ بابنها فإذا بصوته ينبعث من التنور مناغيًا، أخرجته بسرعة واحتضنته شاكرة الرب على نجاته.. كان موسى يضع إصبعه في فمه كما يفعل الرضع عندما يجوعون وينظر إليها بعينيه البريئتين.. موسى الطفل الجميل حسن الملامح لم يمسه أذى بفضل الله تعالى.. معجزة أولى من معجزات كثيرة ستشهدها حياة الطفل.

- ٣ -

"لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلًا، لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يَبْرِيءُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا".

الوصية الثالثة من الوصايا العشر (سفر الخروج ٢٠: ٧)

نجحت أم موسى في إخفاء وليدها عن الأعين ثلاثة أشهر، ولم تقدر على مواراته مدة أطول، كان زوجها يحكي لها كل يوم عندما يعود من عمله عن جنود فرعون الذين يقتحمون المنازل

ويقتلون الأطفال..

كانت أصوات صراخ النساء من الأمهات الثكلى تصم الأذان في المدينة. لم تكن تعلم يو كابد ماذا عليها أن تفعل كي تنقذ وليدها.. كان الجنود ينتشرون، وكان من الممكن أن يعلموا بوجوده في أي لحظة.. ولكنها الأمومة يا سادة.. قلب الأم الذي يقتات بالأمل عندما يتعلق الأمر بالأولاد.. ويؤمنون بتحقيق المستحيل حتى عندما لا يكون هناك أي دليل يثبت هذه الإمكانية.. إلى أن جاء وحي ربها..

أوحى الله لـ "يو كابد" أن تقذف بطفلها في اليم..

واليم عند يو كابد كان "نهر النيل"، كما ذكر القرآن الكريم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلِّبِيهِ فِي السِّبْءِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْنَا ۖ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الآية ٧ من سورة القصص).

أقف قليلاً عند "أوحينا" .. الوحي لا يهبط إلا على الأنبياء؛ لذلك اعتبر البعض ومن بينهم ابن حزم الأندلسي أحد أكبر العلماء وأكثرهم غزارة في الكتابة بعد الطبري، أن أم موسى نبية.. ورفض هذه الفكرة العلماء الذين يقولون إن النبوة لا تكون لامرأة.. بالنسبة لي حاشا لله أن يفرق بين رجل وامرأة إلا بالتقوى.. وقد يهبط الوحي على الصالحين والصالحات.. وهل أم نبي من الممكن أن تكون فيها أي صفة إلا الصلاح؟

"لا تخافي ولا تحزني" .. الخوف يُولد معنا ويبقى مختبئاً

داخل ثنايا أنفسنا.. يغفو أحياناً مثل نمر مستعد للانقضاض، وإذا ما غفا فإنه يغفو بعين واحدة.. وعند أقل اختبار يستيقظ ويهجم علينا واضعاً حوافره في قلوبنا التي تبدأ دقاتها في التسارع حتى نتخيل أحياناً أنها ستتوقف.

والخوف يؤدي إلى الحزن.. فالسعادة في الأمان، وفي الطمأنينة.. أما الحزن فعندما يأتينا، يتسلل إلى نبضاتنا، يجعلنا أشبه بالآلات، نسير بلا روح في حالة تيه.. يصبح القلب فارغاً إلا منه، يملأه فلا نشعر إلا به.

وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً.. كل المشاعر اختفت إلا الخوف والحزن احتلا القلب ولم يتركاً مكاناً لأي مشاعر أخرى. "لولا أن ربطنا على قلبها". يا الله على جمال العبارة.. ربطنا هنا في معناها اللغوي أننا ملأنا قلبها صبراً.. ولكني أحب أن أتصوره بشكل مرثي.. وكأن تعبير "قلبي سينخلع" الذي نقوله في لحظات الهلع الشديدة هو ما حدث.. لولا أن ربطه الله في مكانه.. ثبتته.. قلب يوكابد انخلع والله ثبتته مكانه.

ذهبت يوكابد عند نجار تثق به ثقة شديدة يقال إن اسمه "حزقييل".. طلبت منه أن يصنع لها صندوقاً يتحمل الكثير من المشقات.. ثم قامت بطلائه بالقار حتى لا تتسرب المياه داخله.. بعدها عادت إلى المنزل، حملت رضيعها.. انتظرت أن يحل الظلام وخرجت بطفلها وبصحبتها مريم وهما تحتبتان من عيون جنود فرعون.. أرضعته كي تضمن أنه لن يكون جائعاً فهي لا

تعلم متى ستكون وجبته التالية وأين.. وضعت في الصندوق وغطته بأوراق البردي كي تحميه في حال تحرك الأمواج في نهر النيل.. علَّ أوراق البردي تكون له فراشاً.. أو لربما إيماناً منها بأسطورة فرعونية قديمة تقول إن إيزيس قد جابت القنوات المائية في مركب مصنوع من أوراق البردي بحثاً عن أوزيريس؛ لذا كان المصريون القدماء يعتقدون أن أوراق البردي تحمي من التماسيح.. غطت جسده حتى تحبئه، ودسته بين حشائش نهر النيل، في شجاعة لا تقدر عليها أي أم لا تتمتع بالإيمان الكافي، أو لعله الوحي الذي جعلها تتصرف بثقة.. كانت تعلم ما تفعل لأنها أمّرت بهذا ولكنها لم تكن تعلم ما ينتظره.. وكلما تردّدت أو خافت كانت تسمع هاتفاً يقول لها: "لا تخافي ولا تحزني إننا رادّوه إليك".

- ٤ -

"أَكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ يَكْفِي تَطْوَلَ أَيَّامِكَ عَلَيَّ
الارض الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ"

الوصية الخامسة من الوصايا العشر. سفر الخروج - الاصحاح ٢٠
ألقت الأم بطفلها في صندوق للنهر.. وليس في النهر.. فقد جعلت مصيره في يد المياه التي تحمله.. إما توصله بسلام إلى حيث يأمر الله وإما تقلبه وترميه.. مخاطرة حقيقية وكم في الحياة من مواقف تتطلب منا المخاطرة.. كل شيء في الحياة قرار.. ومن منا يملك دوماً شجاعة اتخاذ القرار؟ لكن شجاعته لم تكن لتكون إلا بسبب الهاتف الذي جاءها، شجاعة ألقاها في قلبها

رب العالمين..

تقاذفت الأمواج الصندوق حتى غاب عن بصر الأم.. اشتد قلقها فبعثت ابنتها الكبرى مريم لتقصه وتراقبه من بعيد.
حملت الأمواج الرضيع إلى روضة عند قصر فرعون، كانت ملتقى للجواري، اختار الله هذا المكان محطة لوصول للصندوق.. فتحنه.. وجدن فيه طفلاً مبتسماً ينظر إليهن.. كيف لهن أن يتصرفن في أمر كهذا؟ القرار في أحوال كهذه لا يكون للجواري بل لسيدة القصر.

حملته إلى السيدة "آسية" زوجة فرعون، التي أحبته ما إن وقع نظرها عليه.. ألقى الله محبة الطفل في قلبها، وكل حب على الأرض يأتينا بأمر إلهي.. فالله يلقي في قلب من يشاء حباً من يشاء وينهي متى يشاء حب كائن من كان..

احتضنت آسية الطفل وقررت الاحتفاظ به، ولكن الخوف كل الخوف كان من زوجها.. وفعلاً عندما علم فرعون بالأمر أمر بقتله فوراً فناشدته زوجته ألا يفعل، وأن يتركه لتخذه ولداً لها. بعد تردد وافق..

كان الطفل دائم البكاء لجوعه.. ورغم هذا رفض أن يرضع من أي امرأة أتوا بها، فخرجوا به إلى السوق يبحثون عن مرضعة تصلح له، أو بمعنى أصح يرضى هو بها، فرأتهم مريم دون أن يعرفوها، وعرضت عليهم مساعدتها قائلة لهن:
- "أعرف امرأة من الممكن أن ترضعه".

أخذتهم إلى أمها، ليعود إليها وتقر عينها، في تدبير جديد من تدابير الله يجمع فيه الطفل بأمه.

حتى وصوله إلى القصر لم يكن الرضيع قد حمل اسمًا، ربما لأن أمه لم تفكر إلا في حياته التي لم يكن لديها أي ضمان على استمرارها.

يؤكد "فلافوس جوزيف" في كتابه عن موسى الذي يحمل اسم "الأثار اليهودية" أن هذه التسمية اللغوية أطلقتها عليه الأميرة المصرية، ويقصد هنا آسية امرأة فرعون التي احتضنت الرضيع وأخذته من على ضفاف النيل.. هي التي أعطته هذا الاسم "مويساس"، لأنه كان قد سقط في الماء، كان المصريون يطلقون على الماء كلمة "مو" والذين يُنقذون وينتشلون من الماء كلمة "يساس"؛ وهكذا أطلقت على الرضيع هذا الاسم المكوّن من هاتين الكلمتين "موسى المنتشل من الماء".

رمت ابنها في الماء وقلبها مليء باليقين أنه في يد الله؛ فكان رده سبحانه كما جاء في سورة القصص الآية ١٣: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

يا الله على جمال الآية.. تقر عينها هنا أي ترتاح من الدموع التي تذرّفها كل أم عند غياب أولادها عنها.. ولا تحزن.. لا يريد الله لأم موسى أن تحزن.. لا يريد لأم من سيكون كليمه أن تحزن.. رحمته ملأت قلب أم موسى فرحًا بعد حزن.

عرضت آسية على يوكابد البقاء في القصر وإرضاع موسى،

إلا أن يوكابد فضّلت أخذه إلى بيتها اتقاءً لشر فرعون..
وتحججت بأن لها زوجًا وأولادًا لا تستطيع تركهم..

كانت تحمله كل فترة إلى القصر لتراه آسية، حتى حان موعد
فطامه.. وكان لا بُدَّ من الفراق واستقرار موسى في القصر..

أشعر عندما أقرأ عن علاقة آسية بيوكابد أن امرأة فرعون
كانت تعلم في قرارة نفسها أن هذه المرضعة هي أم موسى،
ولكنها لم تسألها كي لا تعرّض حياتها للخطر.. أو لعلها سألتها
ولكن لم يسمع حوارهما أحدٌ فلم تذكره كتب التاريخ والمراجع..

ما يدفعني لهذا التفكير هو أمرٌ بديهيٌّ هو رفض الطفل لكل
المرضعات إلا أمه.. لعلّي أتحدث هنا من منطلق عاطفة الأمومة،
والأمر أعمق بكثير وهو أن الله قد ملأ قلبها رحمةً جعلها تسمح
ليوكابد فيما بعد بزيارة ابنها.. والله أعلم وأعلى..

بالنسبة للأم المضحية فإن أهم ما كان يُطمئن قلبها أن ابنها
حيٌّ.. يعيش في القصر آمنًا ويتعلم على أيدي أفضل المدرسين
الفنون والعلوم والدين. يأكل ويلبس جيدًا، وأهم من كل هذا
أنه نجا من موت مُحقق..

لا نعرف ما حدث ليوكابد بعدها..

يعتقد اليهود بأنها مدفونة في مقبرة الآباء في البر الغربي
لبحيرة طبرية.. معها مجموعة من النساء المذكورات في العهدين
القديم والجديد، ومن بينهن صافورية زوجة موسى.. وزوجتين
من زوجات النبي يعقوب والبشيب زوجة هارون وأبيجيل

زوجة داوود على جميع الأنبياء السلام. وتنظم وزارة سياحة فلسطين المحتلة رحلات سياحية ودينية لزيارة هذه المقابر^(١)..

بحثت كثيرًا لمحاولة معرفة أي تفاصيل أخرى عن حياة يوكابد.. ولكن يبدو أن التاريخ أراد أن يخلد ليلة واحدة عاشتها هذه السيدة.. ليلة أطول من ألف ليلة.. القرار ثم الانتظار الذي طال وطال رغم أنه لم يستغرق كثيرًا.. ولكن بعض اللحظات حياة.. وبما أننا نتحدث عن الأم.. وأم النبي الذي دعا الناس إلى اليهودية.. هناك سؤال يطرح نفسه: لماذا ذُكر في التلمود وهو كتاب مقدس عند اليهودية ما مفاده أن اليهودي فقط هو من كانت أمه يهودية.. اليهودي هو فقط ابن اليهودية.. يعتقد اليهود أن هذا الاعتقاد جاء مع موسى، ومنذ أن نزلت عليه التوراة في صحراء سيناء.. ولكن ما أساس هذه العقيدة؟ وما هي جذورها؟ في الغالب السبب هو التفرقة بين أبناء سارة من إبراهيم من أولاد هاجر من إبراهيم؟ التفرقة ما بين أولاد إسحاق وأولاد إسماعيل. عليهم جميعًا السلام؛ لذا قرر كهنة اليهود نسب الولد لأمه لا لأبيه النبي إبراهيم وإلا لكان أولاد النبي إسماعيل يهودا أيضًا، ولضاع حقهم في أرض الميعاد لأنه سيصبح من حق أولاد النبي إسماعيل؛ لأن أولاد إسماعيل هم

(١) موقع <https://www.touristlink.com/israel/tomb-of-the-matriarchs/>

overview.html موقع سياحي لتنظيم رحلات في فلسطين المحتلة

السكان الأصليون الأرض^(١).

رحمة الله بقلب الأم جعل آسية تحب الطفل وفرعون يقبل
بإبقائه حيًا..

من نعم الحياة التي تمدنا بالقوة في الاستمرار، رحمة الله بنا..
ليس بصدفة أن الرحم مشتق من الرحمة..

قصة يوكابد الأم مثال عن السند المتصل.. هي كانت وسيلة
لإنقاذ حياة ابنها من بطش فرعون والله كان سندها في اتخاذ القرار
بالقاءه في اليم، وآسية كانت سندها في رؤية ابنها بعد استقراره في
القصر..

نبدأ كل سورة في القرآن (إلا التوبة) بـ "بسم الله الرحمن
الرحيم" لأنه سبحانه يريد أن يذكرنا دومًا بهاتين الصفتين:
الرحمن والرحيم.

سبحانه يرحم ضعفنا وقلة حيلتنا ويغفر أخطاءنا.. منه
اشتقت الرحمة ووُزعت على الأرض، وما وصلنا من رحمته التي
وسعت السماوات والأرض ليس إلا جزءًا يسيرًا من قدراته..

رحمن رحيم حاولوا ترديدهما وستشعرون بفيض رحمته
يدخل قلوبكم.. فلنقلها دومًا لأنفسنا عندما تشتد علينا
الظروف.. وهل يوكابد الأم المتوكله خير مثال أن لدى الرحمن
الرحيم كل السند والحلول.

(١) مقال للكاتب ميشيل حنا الحاج في موقع الحوار المتمدن

(٢)

حنة بنت فاقوذا

- ١ -

المقصود بـ "آل عمران" عائلة عمران..
"عمران هو والد مريم بنت عمران، أم
عيسى ابن مريم عليهم السلام" - ابن
كثير.

في الصافورية قُرب الناصرة واحدة من
أكبر مدن الجليل في فلسطين وُلدت
حنة.. أو "آنا" أو "هنا" كما تنطق في
اللغات الغربية.. لم يُذكر اسمها صراحة
في القرآن الكريم بل عُرِفَتْ بامرأة
عمران.. حنة بنت فاقوذا وهذا هو

اسمها بالكامل.. اسم حنة أصله عبري توراتي مؤنث، ويعني الرشيقة، وحلوة الشائل.. ولكل منا نصيب من اسمه؛ فقد أثبتت الأيام أنها كانت فعلاً هائلة ورحيمة.

عاشت حنة التي أصبحت اليوم تعتبر قديسة في الديانة المسيحية، بين شوارع قريتها الجميلة.. طفلة هادئة لطيفة مُحبة بريئة إلى أقصى حد.. متميزة بين بنات جيلها بتدينها وتقواها واحتشامها..

والد حنة هو ماثان بن لاوي بن ملكي من نسل النبي داوود، وأمها اسمها مريم من نسل النبي هارون شقيق سيدنا موسى عليهم جميعاً السلام.

جمعت النبوة من طرفيها أي من والدها ووالدتها.

كانت حنة صغرى أبويها اللذين أنجبا ثلاث بنات كبراهن "مريم" أم "سالومي القابلة"، والثانية "صوفية" والدة "اليصابات" أم القديس "يحيى المعمدان" الذي قام بتعميد السيد المسيح في نهر الأردن، وحنة كانت الثالثة.

- ٢ -

"اشتهر في كتب التاريخ أن عمران كان من صالحى أهل زمانه"

منذ طفولتها كانت حنة شديدة التدين.. تتابع الدروس وتفكر في المسيح المخلص الذي سيأتي يوماً ما لإنقاذ البشرية ولم يخطر لها على بال أبداً أنها في يومٍ من الأيام ستنجب أمه - عليهم

جميعًا السلام..

كانت حنة قليلة الكلام كثيرة الصلاة.. لا تخرج إلا للضرورة، وتشغل نفسها دومًا بالأعمال اليدوية.

عندما بلغت سن الزواج كان من نصيبها عمران - كما أطلق عليه القرآن الكريم - ، أما اسمه عند اليهود فهو "يهواقيم" ، ومعنى اسمه "الذي رفعه الإله يهوه" . ويهوه هو اسم الله المذكور في التوراة والعهد القديم وفي الكتاب المقدس .

هناك شخصان من بني إسرائيل، يحملان اسم "عمران"، وبينهما فترة زمنية طويلة تمتد عدة قرون، حوالي ألفي وثمانمائة سنة.

الأول هو عمران والد نبيًا الله موسى وهارون الذي عاش في مصر في بداية تاريخ بني إسرائيل، والثاني هو عمران الذي عاش في بيت المقدس في آخر عهد بني إسرائيل^(١).

(١) يقول ابن كثير رحمه الله:

" المراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم عليهم السلام" انتهى. " تفسير القرآن العظيم " (٢ / ٣٣)

ويقول الطاهر بن عاشور رحمه الله:

"وأما آل عمران: فهم مريم، وعيسى، فمريم بنت عمران بن ماثان؛ كذا سماه المفسرون، وكان من أحبار اليهود وصالحينهم، وأصله بالعبرانية (عمرام) بميم في آخره، فهو أبو مريم. وفي كتب النصارى: أن اسمه (يهواقيم)، فلعله كان له اسمان، ومثله كثير.

وليس المراد هنا عمران والد موسى وهارون؛ إذ المقصود هنا التمهيد لذكر مريم وابنها عيسى، بدليل قوله: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ) انتهى. "التحرير والتنوير"

(٣ / ٨٤)

أما أوجه اصطفاء "آل عمران" على البشر فهي كثيرة عديدة،
منها:

إكرامهم بإدراج النبوة فيهم، وذلك في السيدة مريم وابنها
نبي الله عيسى عليه السلام الذي كان من أولي العزم من الرسل،
وفي نبي الله يحيى عليه السلام، فهو ابن خالة المسيح عليه السلام،
ولدته "إيشاع" أخت مريم خالة السيدة مريم، وزوجة النبي
زكريا عليهم جميعًا السلام.

كان عمران أو جواشيم أو يهواقيم - حسب لغتك التي
تحدث بها - راعياً للغنم.. رجلاً صالحاً جليلاً وخبيراً،
أي شيخ مشايخ بني إسرائيل، وصاحب صلواتهم.

تزوج من حنة التي يطلق عليها لقب امرأة عمران بين جموع
المسلمين وأخذها لتعيش معه في بلدته الناصرة..

والناصرة، هي المدينة التي يحمل اسمها أكثر من معنى..
هي الغصن أو العصا وهي الجبل والنصر.. معانٍ مختلفة لمدينة
جميلة شهدت أحداثاً كثيرة وهي التي منذ نشأتها تستقبل الغزاة
وتودعهم.. مرَّ عليها الفُرس والإغريق والرومان والبيزنطيون
والصليبيون والمغول والعثمانيون والبريطانيون.. إلى أن أتت
عصابات أو كما تسمى سياسياً "المنظمات اليهودية" واستولت
عليها عام ١٩٤٨.

"كَلِمَتِكَ مِصْبَاحٌ. يَلْقَدَمِي. وَنُورٌ لِسَبِيلِي".

(مزمور ١٠٥: ١١٩)

كان الزوجان حنة ويهوآقيم أو عمران شديدي التقوى؛ فكان ما يحصل عليه عمران أو يهوآقيم من مال يقوم بتقسيمه إلى ثلاثة أجزاء: جزء للمعبد الذي كانا يحرصان على الذهاب إليه دومًا للتعبد والصلاة، وجزء للفقراء والمحتاجين، وجزء لمعيشتهما.

وهل تتوقع منهما أمورًا أخرى؟ وهما الاثنان من نسل الأنبياء، من نسل هارون وداوود.. والتقوى تسير في عروقهما.

عاش عمران وحنة في وئام ومودة. كانت حنة تقوم بكل واجباتها حريصة على سعادة زوجها، وكان هو أيضًا زوجًا صالحًا مُجَبِّبًا.. ولكن إرادة الله وهي فوق كل إرادة أرضية شاءت أن تحرمها سنين عديدة من الأطفال.

وفي مجتمع مثل المجتمع اليهودي في ذلك الوقت كان الأمر شاقًا جدًّا على حنة.. عانت كثيرًا من نظرة الناس المتزمته لها كامرأة عاقر لم تلد لزوجها طفلًا.. وكان ينظر إليها وكأن الرب غاضبٌ عليها..

وتحكى الروايات أن حنة ذهبت ذات صباح تتنزّه وسط الطبيعة الساحرة في فلسطين.. بين أشجار الزيتون والبرتقال، ورأت أمامها عصفورًا يصيح ويغرّد وخرجت من أحشائه بيضة.. فبكت وقالت:

- "أيا ربي، أنا غير قادرة أن أكون مثل هذا العصفور الصغير"^(١).

ولكن حنة اختارت الصبر.. والدعاء.. صبرت رغم حزنها ورغم انقضاء السنوات سنة بعد أخرى، ومعها كان يخفت الأمل الذي يكون كبيرًا جدًا في بداية الزواج.. ويصبح أصعب كلما قلت الفرص مع التقدم بالعمر.. صبرت رغم معايرة المجتمع القاسي لها بأن رحمها مثل صحراء قاحلة غير قادر على أن يزهر.. صبرت رغم قسوة الكلام، ورغم الاحتياج والشوق لضم طفل بين ذراعيها.. رغم كل هذا صبرت..

صبرت حنة صبرًا جميلًا وأخذت من الدعاء وسيلة؛ فكانت تدعو ربها صباحًا ومساءً.. دون كلل أو ملل. وأشد ما كان يحزنها هي وزوجها ما عرفوه من التوراة من أن المسيح سيأتي من نسل سيدنا داوود؛ فكانا يحملان أن يكون من نسلهما.. ولكن الله أراد لهما أولًا اجتياز اختبار الصبر..

- ٤ -

"ادعوني وقت الضيق أنقذك فتمجدني"

(مزمور ٥٠/ ١٥)

مرت سنوات كثيرة، كثيرة جدًا من الدعاء والصلاة والزكاة

(١) وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره، أن أم مريم كانت لا تحبل، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له، [ص: ٤١٩] فاشتتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا؛ أي حبيسًا في خدمة بيت المقدس.

والصيام مصحوبين بدموع لا تجف قبل أن يستجيب الله لدعائها
وكأنه كان يريد منها أن تثقل من ميزانها عنده أولاً..

كان المجتمع اليهودي شديد القسوة مع الذين لا ينجبون.
وفي أحد الأعياد ذهب عمران أو يهواقيم ومعه زوجته حنة التي
كانت تغطي شعرها كعادة نساء اليهود في تلك الفترة وتسير
مطاطئة الرأس كي تهرب من نظرات الناس الغاضبة لها.. كانوا
يحمّلونها مسؤولية عدم إنجابها لطفل وكأن الأمر في يدها..
وكان يتقدمها زوجها وهو يجر خروفاً لتقديمه قرباناً للرب..
والقرايين عمرها من عمر الكون.. بدأت مع هابيل وقابيل،
وهي عمود أساسي في الديانة اليهودية.

سار هيوافيم لكاهن الهيكل ليقدّم له الخروف فرفضه قائلاً:
- "كيف تجرؤ على القدوم إلى هنا وأنت مغضوب عليك من
الرب؟ ألا تعلم أن من لم يرزق بأولاد مذموم لأن الله قد رآه غير
جدير بذريّة؟"

ورفض الكاهن قبول الشاة أمام الجميع..
عادت حنة إلى منزلها وقلبها يقطر حزناً على حالها وعلى
زوجها الذي ترك بعدها المنزل أياماً حزناً على حالهما واختار
البقاء لفترة مع رعاة غنم علّه يجد سلامه النفسي.
ولو فكرنا في سبب هذا الاختبار الذي مرت به حنة لوجدنا
أنه كتب على الأنبياء والقديسين المرور بابتلاءات كثيرة كي
يكونوا جديرين باصطفاء الله لهم..

أمر آخر: كل ما يحدث كان من شأنه أن يجعلها تتعلق أكثر بالطفل إن جاء.. فما يأتي بعد مشقة لا يُترك إلا بمشقة.. ليأتي الاختبار بعدها على قدر الإيمان.

رغم تقدُّم حنة في السن هي وعمران إلا أنها لم تفقد الأمل.. كلما ضاقت بها الدنيا كانت تدعو..

لم تفقد لحظة أملها في ربها.. ولعلَّ يقينها هذا كان سببًا في اختيارها كي تكون والدة السيدة مريم العذراء.. دعت بيقين ثم نذرت أن تهب مَنْ في أحشائها للمعبد أو للهيكل المقدس أي للرب. وما إن فعلت هذا حتى استجاب سبحانه تعالى.. وتحركت الطفلة في أحشائها..

تحركت مريم في أحشاء حنة.. وفي حمل حنة في هذه السن المتأخرة معجزة.. معجزة ستلد معجزة تلدهي الأخرى معجزة.. ولكن الله سبحانه قادر على كل شيء.. فهل كان للسيدة مريم العذراء أن تكون مجرد طفلة طبيعية تزوج أبواها وأنجباها، أم كان يجب أن تكون هي أيضًا نتاج معجزة؟

- ٥ -

"إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلِّق بالمزيد، ولن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد".

بعد حملها ازداد شكر حنة لله.. لم تكن مثل عبيد آخرين يدعون الله في الاحتياج فقط وعندما يستجيب ينسونه.. نجحت

حنة في امتحان الصبر والابتلاء بالعقم، ونجحت في امتحان
العرفان والامتنان بعد الحمل..

وينسى البعض أن النعم فتن عندما ينسون الحمد على أمور
يعتبرونها مسلمًا بها..

عندما علم عمران بحمل زوجته، ورغم ما حدث في السابق
في المعبد إلا أنه ذهب وقدم أكثر من شاة كقربان شكرٍ على نعمة
الله.

ولنا أن نتخيل ولادة السيدة مريم.. في مخيلتي صورة لا
أعلم دقتها، ولكن أستقيها من الحديث الشريف: "ما جلس
قومٌ مجلسًا يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة وتغشتهم الرحمة
وتنزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده"^(١).

فكيف إذا ما كانت الولادة معجزة؟

أتخيل اجتماع الملائكة لحضور لحظة قدوم السيدة مريم
للأرض.. أتخيلهم وقد أحاطوا بها عليها السلام.. فهذه لحظات
لم تعرفها البشرية إلا مع العذراء مريم..

كانت حنة تتوقع ابنًا ليخدم في المعبد، ففوجئت بابنة..
أسمتها مريم على اسم والدتها..

عرف بنو إسرائيل أن زوجة عمران المؤمنة التقية قد نذرت
جنينها للمعبد ففرحوا..

ورغم أنهم لم يتعودوا على خدمة الفتيات في المعابد.. لكنَّ

(١) حديث نبوي: المصدر: صحيح ابن ماجة الصفحة أو الرقم: ٣٠٧٣.

النذر نذرٌ.. والعهد كان مسؤولاً؛ لذا قررت حنة أن تفي بنذرها وعهدها.. ومع أن الذكر ليس كالأُنثى عند البشر إلا أن حسابات الخالق مختلفة..

لحكمة لا يعرفها إلا الله مرضَ عمران مرضاً شديداً.. قليلة جداً الكتب التي تتحدث عن والدي السيدة مريم العذراء.. حتى الأناجيل والكتب المقدسة لم تذكرهما كثيراً.. معظم المعلومات جاءت من كتب التقليد الكنسي، وهي مصادر تاريخية قديمة جداً، ويقال إنها كتاباتٌ يهودية، وكتابات مسيحية مبكرة، ومُعترف بها من الكنيسة الأرثوذكسية، لكن لا تنسب لأي تلميذ من تلاميذ السيد المسيح.. عامة المعلومات عنهما قليلة جداً.. وهذه الكتب تقول إن يواقيم قد عاش حتى شاهد ولادة ابنته وقرت عيونه بها وقدم عنها قرباناً ثم مرض وتوفي عندما بلغت الثالثة أو الرابعة من عمرها^(١).

أصبحت مريم في سن صغيرة جداً يتيمة الأب.. لم تكن حنة أمّاً مثل بقية النساء.. رغم فرحتها الشديدة بطفلتها ورغم تعلُّقها الشديد بها إلا أنها لم تنسَ النذر الذي قدّمته لربها.. انتظرت حتى أصبحت مريم في سن تستطيع الاعتماد فيه على نفسها، وأخبرتها بحكايتها..

فما كان من مريم إلا أن استجابت وقبلت الذهاب للهيكل.. صعدت مريم الخمس عشرة درجة التي يتألف منها سلم

(١) موقع الأنبا تكلا هيمنوت St - Takla.org

الهيكل راضيةً بقدرها.. دخلت ليستقبلها كهنة المعبد ولتقوم على
تدريسها مجموعة من المدرّسات اللاتي وهبن حياتهن للمعبد..
لتدريس النصوص المقدسة.. ولا زالت هناك حتى يومنا هذا
مدرسة من هذا النوع عند حائط البراق في القدس وهو الحائط
الذي يسميه اليهود حائط المبكى.

أما حنة الأم التي انتظرت عمرًا بأكمله قبل أن تحمل بين
ذراعيها طفلًا من أحشائها، ها هي اليوم التزامًا بعهداها أمام
خالقها تحمل هبة الله لها لتسلمها للمعبد.. كان سند حنة في
قرارها هو إيمانها، وكانت حنة سندًا لا بنتها عندما نذرتها، وقدوةً
لها عندما وفّت بنذرها..

- ٦ -

"أَيْهَا الْأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ
هِيَ مِنَ اللَّهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللَّهِ
وَيَعْرِفُ اللَّهَ. وَمَنْ لَا يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ، لِأَنَّ
اللَّهُ مَحَبَّةٌ."

إنجيل يوحنا (٤: ٧، ٨)

ذهبت حنة بالطفلة مريم إلى ما كان يسمى بالهيكل، وما
أصبحنا اليوم نسميه ببيت المقدس..
كان الكهنة أو الأحبار القائمون على المعبد من نسل سيدنا
هارون شقيق سيدنا موسى عليهما السلام تمامًا مثل حنة..
ما إن دخلت مريم عليهم حتى رأوا طاقة نور تخرج من

وجها فتنافسوا على رعايتها..

وفت حنة بوعدھا، وقدّمت الطفلة مریم لربھا وتقبّلھا الله
سبحانه قبولاً حسناً..

بقيت حنة ترعى طفلتها من بعيد.. كان من الممكن أن
تحتجج بطول انتظارها للأومة.. أو أنها رُزقت بأشئ لا بدكر
وتبقى طفلتها قريباً تخفف من وحدتها.. إلا أنها اختارت أن تفي
بعهدھا لله..

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة آل عمران).

حنة نموذج المرأة التقية، التي اختارت الله أولاً، عانت كثيراً
إلا أنها كانت دوماً راضية شاكرة وتنازلت عن أغلى ما تملك من
أجل مرضاة الله..

حنة والدة مریم سيدة نساء العالمين..

عانت في حياتها وصبرت ونجحت في امتحانات عدة..
هي سيدة وفّت بعهدھا مع الله.. فكانت خير سند لخير
طفلة.. وأنا أحب الصادقين وأتمنى أن أكون منهم.

(٣)

آمنة بنت وهب

- ١ -

"ما نسلتها ما حيت"

محمد (ﷺ) عن آمنة

وسط أسرة معروفة في قبيلة زهرة
وهي بطن من بطون قبيلة قريش، وفي
منتصف القرن السادس الميلادي ولدت
آمنة بنت وهب..

قبيلة زهرة التي سُميت على اسم سيدة
لا توجد تفاصيل عنها سوى اسمها..
كانت القبيلة المسؤولة عن كل الوظائف
الدينية الهامة في ذلك العصر.. وما
يترتب على هذه الوظائف من مكانة
ورفعة وامتيازات لأصحابها..

والد آمنة هو وهب سيد بني زهرة، وابن عبد مناف بن زهرة
وأُمها، برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن
كلاب بن مرة بن كعب..

جمعت آمنة العراقة من الجهتين الأب والأم، حتى إن رسول
الله محمد كان يفتخر دومًا بأنه من خيرة أنساب العرب..
"كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسبًا وموضعًا"
هكذا وصفت آمنة في كتب السيرة..

ابنة أصل وحسب ونسب من عائلة وقبيلة شهيرة.. لُقِّبَتْ
بزهرة قريش وهو اسمٌ على مسمى.. فهي ابنة سيد بني زهرة،
أشهر قبائل قريش.

عرفت آمنة بنت وهب عبد الله بن عبد المطلب منذ نعومة
أظافرهما.. التقى الطفلان أولاد العم في ربوع مكة وفي ساحات
الحرم.. كانت العائلتان تتزاوران دومًا؛ عائلة عبد المطلب
سيد بني هاشم، وعائلة وهب سيد بني زهرة.. وجمع الودُّ بين
أفرادهم.. وبين قلبيّ الطفلين.. كان البيت الهاشمي هو الأقرب
إلى بيت آل زهرة..

فعندما يلتقي الأهل دومًا والأطفال بكل براءة يلعبون..
يصبح الأقرباء أقرب..

مضت السنوات وكبرت زهرة قريش.. تحاكى الناس عن
جمالها وبدأ الخطّاب يطرقون باب أهلها. آمنة الجميلة كانت أيضًا
ذات حسب ونسب وهذه أمور عند العرب لا تُترك..

كبر عبد الله بن عبد المطلب.. أصبح واحداً من خيرة شباب قريش وأوسمهم..

أبوه عبد المطلب بن هاشم كان أمير مكة، وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائد المخزومية التي أنجبت لزوجها أيضاً الزبير وأبي طالب الذي أنجب باب الحكمة كما يطلق عليه علي بن أبي طالب..

وقبل أن نكمل حكاية آمنة لا بُدَّ من ذكر حكاية عبد الله.. ويجب هنا أن نعود إلى البداية.. إلى ما قبل ولادة عبد الله.. عند حفر بئر زمزم..

بعد أن ضرب الطفل إسماعيل بقدمه الأرض وانفجرت مياه زمزم، تكاثرت العمران في مكة المكرمة وأصبح البيت معموراً.. تولت قبيلة جرهم شؤون الحرم والحجاج وسقياهم بماء زمزم.. استمر الحال إلى أن جاءت قبيلة خزاعة من اليمن بعد تهديم سد مأرب، ووقعت حربٌ بين القبيلتين انتصرت فيها قبيلة خزاعة على قبيلة جرهم وأخرجتهم من مكة. عندما غلبت قبائل جرهم على أمرها في نهاية أيامها بسبب نزاعها مع قبيلة خزاعة، أدركت أنها ستضطر للخروج من مكة، فاستبد بها الغيظ وردمت بئر زمزم، فاختفى أيُّ عنصرٍ لازم للحياة والأحياء في المكان. وبدأ أهل مكة يعتمدون على آبار مياه أخرى متفرقة.. كانت فترة عصيبة في حياة أهل مكة^(١)..

(١) مكة المكرمة في الجاهلية وعصر الرسول: د أحمد إبراهيم الشريف.

مرت سنوات وسنوات إلى أن كان القرن الخامس الميلادي وتولى قُصي بن كلاب، وهو الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام أمر مكة بعد طرده لقبيلة خزاعة.. قام بتجميع قبائل قريش وإعادة بناء الكعبة التي كانت قد تهدمت بسبب السيل وقت دخول خزاعة مكة..

وبقيت أمور مكة في يد أجداد الرسول سنواتٍ عدة يتوارثها رؤوساء القبائل.. إلى أن أتى الدور على عبد المطلب والد عبدالله وجدّ النبي محمد عليه الصلاة والسلام.. ولزمزم وَعَبْدالمطلب أيضًا حكاية.. وكل حكاية توصلنا إلى حكاية، ولا تحلو الحكايات إلا بالصلاة على النبي.

- ٢ -

اثنا عشر اسمًا لززم

"زَمَزَمَ، مَكْثُومَةٌ، مَضْنُونَةٌ، شُبَاعَةٌ، سَنَقِيَا
الرَّوَاءِ، رَكُضَةٌ جَبْرِيْلَ، هَزْمَةٌ جَبْرِيْلَ، شَيْفَاءُ
سَنَقِيْمَ، طَعَامُ طَعْمِ عَبْدِالمَطْلَبِ، حَفِيْرَةٌ

ابن بري في لسان العرب

يتناقل الناس عن علي بن أبي طالب حكاية إعادة حفر زمزم بعد اندثاره على يد عبد المطلب.. والذي يتعارف على تسميته بحديث زمزم^(١)..

(١) كتاب الرؤيا: التويجري، حمود بن عبد الله.

بينما كان عبد المطلب نائمًا في حجر إسماعيل عليه السلام في
ساحة الكعبة، أته مجموعة رؤى متتابعة كل يوم رؤيا بصوت
يأمره بحفر زمزم.

في المرة الأولى خرج إلى قريش وأخبرهم بما رأى فقالوا له:
- "فهل بين لك أين هي؟"

قال:

- "لا".

فقالوا له:

- "فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت، فإن يكن
حقًا من الله يبين لك، وإن يكن من الشيطان فلن يعود إليك".
عاد إلى حجر إسماعيل، ونام وأته الرؤيا مرة أخرى بهاتف
يقول له:

- "احفر زمزم إنك إن حفرتها لن تندم، وهي تراث من
أبيك الأعظم لا تنزف أبدًا ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم مثل
نعام جافل لم يقسم، وينذر فيها نادر بمنعم تكون ميراثًا وعقدًا
محكمًا، ليست لبعض ما قد تعلم، وهي بين الفرث والدم".
فسأل:

- "وأين أحفر؟"

فكانت الإجابة:

- "عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدًا، فالله أعلم أي
ذلك كان".

وبحث عبد المطلب عن بيت النمل .. وجدّه بين تمثالين من أشهر تماثيل قريش .. "نائلة" و "إساف" .. وهنا في الأصل رجل وامرأة من جرهم اجتمعا في الكعبة، فكان منه إليها الفاحشة، فمسخها الله حجّرين^(١).

وجد عبد المطلب الغراب ينقر عندهما.. كان معه ابنه الحارث، ولم يكن قد أنجب غيره.. ضرب معوله في الأرض فبدأ أهل قريش في التذمر.. وهم يقولون له:
- "كيف تحفر بين اثنين من كبار آلهتنا؟ إنه المكان الذي ننحر فيه ذبائحنا!!!"

إلا أن عبد المطلب لم يتراجع.. طلب من ابنه الحارث أن يمنع الناس من الاقتراب منه.. فلما وجدوه مصراً.. تركوه.. وخيراً فعلوا.. فبعد عدة ضربات معول ظهر الطمي.. دليل وجود ماء تحته..

عرف أن رؤياه حق فأكمل الحفر.. ووجد غزالتين من ذهب، وعدة سيوف ودروعاً كانت قبيلة جرهم قد أخفتها قبل خروجها من مكة..

تجمّع أهل مكة حوله.. وطمع أهل قريش في الماء وفيما عثر عليه من ذهب وسيوف.. فطالبوا بحقوقهم.. حلاً للنزاع اقترح عليهم عبد المطلب الضرب بالأقداح، أي استخدام أقداح السهام على عادة العرب في ذلك الوقت.

(١) حديث السيدة عائشة كما جاء ذكره في كتاب: السيرة النبوية لابن كثير.

كانت الأقداح توضع أمام هُبَل وهو كبير الآلهة الوثنية..
وهُبَل كان تمثالاً على هيئة إنسان مصنوع من عقيق أحمر بيد
مكسورة صنعت له قريش بدلاً عنها يداً من ذهب^(١).
كان العرب يلجأون إلى الضرب بالأقداح وهو ما يشبه
القرعة في أيامنا هذه لمعرفة أمر في الغيب أو الوصول إلى قرار..
قرعة بالضمة فوق القاف..
يرمون السهام والسهم الذي يقع على قدح مكتوب عليه أمرٌ
يكون.

أصرَّ أهل قريش على أخذ نصيبهم مما عثر عليه عبد المطلب
فاقترح عليهم الضرب بالأقداح..
وقال:

- "اجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن
خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له".
وافقت قريش وقالوا:
- "أنصفت"^(٢).

فجعل للكعبة قدحين أصفرين، وله أسودين، ولهم أبيضين،
ثم أعطوا القداح الذي يضرب عند هُبَل، وضرب صاحب
القداح، فخرج الأصفران على الغزاليين للكعبة، وخرج الأسودان
على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش،

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي.
(٢) البداية والنهاية/ الجزء الثاني/ تجديد حفر زمزم: ابن كثير.

فضرب عبد المطلب من الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب
الغزاليين من ذهب، فكان أول ذهب حلية للكعبة فيما يزعمون^(١).
أصبح عبد المطلب بعدها - بمباركة الجميع - مسؤولاً عن
زمزم وعن سقاية الحجاج..
تعددت الآبار إلا أن زمزم واحدة.. أتت زمزم فغطت على
بقية الآبار..

زمزم مياه وهبها الله عن طريق الملاك جبريل للعالمين وجعل
إسماعيل بن إبراهيم سبباً عندما ضرب الأرض بقدمه الصغيرة
فتدفقت.. خير كثير خصَّ الله به مكة فافتخرت بها قريش على
سائر العرب.

افتخروا بزمزم واعتمدوا عليها حتى قبل أن يأتي رسول الله
محمد ويقول لهم: "ماء زمزم لما شربته له".

- ٣ -

"الصالحون في المؤمنين قليل، والصادقون
في الصالحين قليل، والصابرون في الصادقين
قليل، فجعل الصبر خاصية للصدق، وجعل
الصابرين خصوص الصادقين".

- الإمام سهل التستري.

في خضم الانهماك بحفر بئر زمزم، وبينما كان عبد المطلب
يضرب الأرض وابنه الحارث يبعد الناس عنه أخذت قريش في

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

معايرته بأنه قليل الأولاد.. فسرها في نفسه ثم نذر أنه إذا ما رزقه الله عشرةً من الأولاد فإنه سيقوم بنحر أحدهم أمام الكعبة.. وكان له ما دعا به.. إذ رزقه الله فعلاً عشرة من الأولاد..

وحان وقت الوفاء بالنذر. فالنذر لا يموت مهما مرت السنوات. في شهر جمادي الأول أخذ عبد المطلب أولاده العشرة إلى الكعبة، وكل واحد فيهم يحمل قدحاً عليه اسمه.. مستسلمين وراضين بقضائهم؛ فنذر أبيهم ديناً عليهم^(١)..

نتوقف قليلاً عن حكاية عبد الله لنعود إلى آمنة التي كانت في ذلك الوقت مثلها مثل بقية نساء قريش ورجالها، قد سمعت عن النذر وجلست تنتظر من سيكون الذبيح.. من سيختاره رب العالمين كي يفني بنذر كبير بني هاشم..

دخل عبد المطلب إلى الحرم المكي أمام الكعبة محاطاً بعشرة من زينة شباب قريش.. أبناؤه الذين كانوا يعلمون وهم يسرون خلف أبيهم أن واحداً منهم يسير إلى مصيره المحتوم.. كانوا يعلمون أن العشرة سيعودون تسعة. كل واحد منهم يفكر إن كان سيكون هو أو واحد من إخوته..

وقف الجمع أمام تمثال هُبل وحوهم جموع الناس ينتظرون في ترقب ما سيؤول إليه الأمر.. شرح عبد المطلب نذره لصاحب القداح أي لمن سيقوم بالقرعة.. ثم قام كل ولد من أبناء عبد المطلب بإعطاء الرجل قدحاً المكتوب عليه اسمه وانتظروا..

(١) السيرة النبوية لابن هاشم.

وبقيت الأنظار مُعلّقة بصاحب الأقداح وقلب عبد المطلب يخفق
بشدة لا يعرف بماذا يدعو أو لمن..

لحظات أطول من سنين.. إلى أن أعلنت النتيجة.. من
سيُذبح هو عبد الله..

قال القدر كلمته، وخرج القدح على عبد الله أصغر أبناء عبد
المطلب وأقربهم لقلبه..

جزع الأب ولكنه تمالك نفسه وقرّر أن ينفذ النذر الذي
عليه.. أخذ شفرته في يد ورأس ابنه عبد الله في يد أخرى وقلبه
يرتجف مثل يديه وأكثر.. مشهد يذكّرنا بجد عبد المطلب النبي
إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام..

توقف عبد المطلب أمام تمثالي نائلة وإساف.. رفع يده فإذا
بالمغيرة عبد الله المخزومي يمسك بها ليوقفه ويقول له:

- "لو فعلت هذا لأصبح أمرًا متبعًا، ولذبح الرجال
أولادهم.. ولو أردت لفديناه بأموالنا".

أمّن الحضور على كلام المغيرة، ثم تشاور مشايخ قريش
واقترحوا عليه التالي:

- "اذهب إلى عرافة في خيبر لها تابع، فإن اقترحت عليك
ذبحه ذبحته، وإن اقترحت عليك أمرًا آخر فيه إنقاذ لحياته
فافعل"^(١).

كانت آمنة قد سمعت بأن القدح قد استقر على عبد الله،

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

وانزعجت بشدة مثل كل من في مكة، بل أكثر؛ فعبد الله كان محبوباً من الجميع.. ومن آمنة أكثر.. سمعت بعدها بما أشار عليه شيوخ قريش.. وبدأت تنتظر ما الذي ستطلبه عرافة الحجاز.. وما أطول الانتظار على من لا يعرف ما الذي يحدث أو سيحدث بعدها.

- ٤ -

"يا رب أنت المليك المحمود
وأنت ربي المبدئ والمعيد
من عندك الطارف والتليد"

عبد المطلب جد الرسول

وصل عبد المطلب إلى خيبر ومعه ابنه وجمع من أهله.. أخبر العرافة بنذره.. استمعت ثم قالت له:

- "اذهب اليوم وعد غدًا أكون قد سألت تابعي وأفيدكم".
قضى عبد المطلب ليلته مستيقظًا داعيًا ربه أن ينقذ ابنه.. أما عبد الله فقد قضى ليلته يتساءل عمًا كتبه الله له.. هل سيبقى حيًا أو سيدبح؟ وما الحكمة في أن الاختيار أو القدر كان من نصيبه.. وكثير من الأسئلة في حياتنا تكون بلا إجابة..

في اليوم التالي توجه عبد المطلب إلى العرافة واسمها "سجاح" منتظرًا الحكم.. مثل كل من ينتظر قرارًا قاضي حياته معلقة بكلمة منه..

سألته العرافة:

- "كم الدية لديكم؟"

أجابها عبد المطلب:
- "عشرة من الإبل".

قالت العرافة:

- "عليك أن تضع عشرة من الإبل وأمامها ابنك واضرب
بالقداح - أي بالقرعة كما شرحت آنفاً - وإن جاءت على عبد الله
زيدوا الإبل حتى يرضى الله عن ولدكم هذا وتأتي القدح على
الإبل.. عندها انحروها عنه فقد رضي الله عن ابنكم"^(١).

يقال بأن القداح ما زالت تختار عبد الله حتى وصل عدد
الإبل مئة. وأعاد عبد المطلب ضرب القداح ثلاث مرات كي
يتأكد من رضا ربه عن قربان ابنه^(٢)..

وفدى عبد الله بمئة من النوق.. فدية غالية لحفيد إسماعيل
الذي تم فداؤه قبله بكبشٍ من السماء.

فكرة الفدي أو قربان موجودة منذ الأزل.. منذ أيام هابيل
وقابيل.. منذ بداية البشرية.. فدى عبد الله لأن أجله لم يكن
قد حان بعد.. لأن دورًا كبيرًا كان في انتظاره.. وأي دور.. أن
ينجب نبي..

عاد عبد المطلب إلى مكة ومعه أولاده جميعًا.. نجا عبد الله
وذبحت الإبل وأصبح يطلق من يومها عليه لقب الذبيح..

(١) رواها أبو نعيم في "دلائل النبوة" (ص ١٣١) وابن عساكر في "تاريخ دمشق"
(٣/ ٤٠٤) والخرائطي كما في "البداية والنهاية" (٢/ ٣٠٨) ورواه ابن سعد في
"الطبقات" (١/ ٧٨).

(٢) قال النسائي عنه إنه حديث متروك. وقال الدارقطني: ضعيف.

وصل الخبر إلى آمنة.. أتت إليها أمها برة بنت عبد العزي
وحكت لها ما حدث.. العرافة والفداء والنهاية السعيدة بنجاة
عبد الله مقابل مئة من النوق..

سعدت آمنة كثيرًا لسماع الخبر، وأحست أن الله قد رد إليها
عبد الله مع أنه لم يكن أبدًا لها.. ولكن القلب يمتلك من يشاء،
ومن له أن يحاسب قلوبنا على من تملكها؟؟

- ٥ -

"أما الحرام فالممات دونه
والحلال لا حل فأستبينه
فكيف لي بالأمر الذي تبغين
يحمي الكريم عرضه ودينه"

عبد الله بن عبد المطلب

بعد أن عاد إلى الحياة، وهو تعبير مجازي، إلا أنه صحيح؛
فقد وصل السكين إلى رقبة عبد الله وكان على وشك لقاء ربه..
وربه نجّاه.. قرر عبد المطلب تزويج ابنه، واختار له خيرة بنات
زمانها وقبيلتها: آمنة، زهرة بني زهرة.

كان عبد الله شابًا وسيما، وبعد ما حدث في موضوع الفدي
تزايدت شعبيته بين الناس واشتهر بلقب الذبيح.

وهناك حكاية اختلف عليها المؤرخون فمنهم من حكاها في
كتبه^(١) ومنهم من أنكرها، وقال البعض إنه حديث ضعيف^(٢)،

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

(٢) أم الرسول محمد آمنة بنت وهب: الدكتورة بنت الشاطي.

ولكن المؤكد أن هذه الحكاية قد جاءت في معظم كتب السيرة لذا أحكيها.. سواء حدثت أم لم تحدث أنا هنا مجرد ناقل لما قرأت.

والحكاية المشهورة المروية في عامة كتب السيرة ودلائل النبوة تقول إنه عندما كان عبد الله في طريقه لإتمام زواجه من آمنه، اعترضت طريقه كاهنة من اليهود اسمها فاطمة بنت مر الحثعمية، وسألته إلى أين هو ذاهب.. وكانت امرأة شديدة الجمال والعفاف فأجابها:

- "عند أبي".

فقالت له:

- "لك مثل ما نحررت اليوم من إبل إن قبلت أن أهبك نفسي".

فاعتذر منها بلطف.

وقيل إن هذه السيدة التي اعترضت طريقه هي أم قتال أخت ورقة بن نوفل وقيل إن اسمها رقية بنت نوفل والرواية منقولة عن ابن إسحاق.

كان عبد الله بن عبد المطلب قد تحوّل إلى ما يشبه البطل في قبيلته يتحاكون حكاية الذبيح، حفيد النبي إسماعيل. عاش تجربة جده مرة أخرى.. الجميع يتحدث عن الفداء الغالي الذي كان ثمناً لحياته^(١)..

بعد النجاة من الذبح حان موعد الزواج.. كان القلب قد

(١) طبقات ابن سعد.

اختار منذ زمن؛ فتاة بني زهرة: آمنة.. أخبر أباه وقبل أن يتوجهها إلى منزلها ذهباً إلى أبيها "وهب" وطلباً يدها..

دخل وهب وسال ابنته عن رأيها.. لم تستطع مداراة خجلها وسعادتها، ولا التقليل من ضربات قلبها التي تسارعت جداً ولا من احمرار وجهها الذي فضح ما في داخلها.. سال الأب ابنته عن رأيها وخرج، وتولت الأم الباقي.. فهمت الأم دون كلام ما الذي يدور في قلب ابنتها ونفسها.. احتضنتها مبتسمة عليها تخفف عنها قليلاً من توترها.. أو لعلها تبطئ من سرعة دقات قلبها التي كادت تسمعها..

وتحدّد موعد الزفاف.. ابن شيخ بني هاشم على ابنة شيخ بني زهرة^(١)..

استمرت الأفراح ثلاثة أيام في دار أبيها كما جرت العادة في تلك الأيام.. وفي اليوم الرابع توجه عبد الله إلى داره ودار أهله ليعدها لاستقبال زوجته الحبيبة.

لحقت العروس بزوجها.. تركت البيت والأرض التي شهدت طفولتها وذكريات وأهلها.. رغم سعادتها بزيجتها وبزوجها إلا أن حياة جديدة كانت في انتظارها.. وأي حياة جديدة مهما حلمنا بها أو أردناها بشدة إلا أن الرهبة لا بُدَّ وأن تعترينا ونحن نبدأها.

وصلت إلى منزلها الجديد ووجدت زوجها مبتسماً مرحّباً،

(١) أم الرسول محمد آمنة بنت وهب: الدكتورة بنت الشاطي.

وكعادة المحبين فهم ما يدور داخلها.. أحس بتخوفها وحزنها على فراق أهلها، فأدخلها إلى غرفتها كي تستريح، وتركها مع النساء اللواتي جئن معها ومع صديقاتها وخرج ليرحب بالضيوف من الرجال..

ذهب المهنئون والتقى العروسان مرة أخرى. كانا يقضيان الليل يتسامران.. وسألت أمنة عبد الله عن النساء اللاتي عرضن أنفسهن عليه، فأجابها:

- "لقد غيّر رأيهن".

فاستغربت وسألت:

- "ولم؟"

أجابها عبد الله بأنه استغرب الأمر هو الآخر عندما شاهد النساء قبلها بيوم يشحن بوجوههن عنه.. وعندما سألت رقية بنت نوفل قالت له:

- "عندما عرضت نفسي عليك كان هذا لأني رايت يومها على وجهك نوزًا لم أراه من قبل.. أما اليوم فالنور قد اختفى".

ورقية بنت نوفل هي أخت ورقة بن نوفل الذي لم يكن وثنيًا بل نصرانيًا يقرأ في الكتب المقدسة وبشر القوم في الحجاز بأن هناك نبيًا سيظهر.

بقي العروسان معًا عشرة أيام فقط.. بعدها كان لا بُدَّ من فراق.. فقافلة الشام ستنتطلق وعبد الله معها..

فراق موجه للشابين الحبيين فهما لم يقضيا وقتًا كافيًا معًا.. وبالنسبة لآمنة مكان جديد ومنزل جديد بعيدًا عن أهلها، وفوق كل هذا يتركها زوجها بسبب تحرك قافلة الشام.. وكان لا بُدَّ وأن يسافر مع تجارته وتجارة أهله.

لحظات الفراق كانت صعبة جدًا.. تشبعت آمنة بعبد الله وأمسكت بيده، وكان عبد الله بطبعه ليذاً طيباً فأخذ يهدئ من روعها قائلاً لها:

- "هي أسابيع قليلة يا آمنة وأعود. ستمر الأيام سريعاً وسأعود إليك"

maktabbah.blogspot.com

وكم من وعود نقطعها بشفقة دون أن نعلم أن للأقدار أقوالاً أخرى. سافر عبد الله مع القافلة إلى الشام. وبقيت أمينة في انتظاره لم تستطع الاختلاط بالناس فقد كانت تميل أكثر إلى العزلة.. حاول معها أهل زوجها إلا أنهم في نهاية الأمر احترموا خجلها وتفضيلها للبقاء وحدها.. كانت جاريتها "بركة أم أيمن" ترعاها وتؤنس وحدتها.

استمرت الأيام في مرورها، والصبر مع كل يوم يطول ويطول، فالوقت أطول عندما يكون الفراق فراقاً محبوباً. كانت أمينة مثل كل سيدة حامل تضع يدها على بطنها وتتخيل الطفل المنتظر. وكأنها عندما تضع يدها على بطنها تُطفئ الكائن الصغير وترسل إليه رسائل حب

إلى أن حان موعد وصول القافلة، ولاحت بوادرها في الأفق. وقفت أمينة في صحن دارها منتظرة دخول الحبيب مستعدة مبتسمة بعد أن طال الشوق وأشعل نيران قلبها. فهي لم تزحبيها إلا مدة وجيزة وافترقا. ولكن يبدو أن الانتظار قد كُتب عليها.

مرت الساعات وأمنة مكانها.. بصرها معلق على الباب علّه يأتي بزوجها.. إلا أن عبد الله لم يظهر ودخل مكانه والده عبدالمطلب.. وقبل أن تسأل عنه وجدت حماها يقول لها:

- "صبراً أمينة.. إن وعكة قد أصابت عبد الله فأخذه أترابه إلى أخواله في يثرب.. يشفى ويعود إليك، وسأرسل إليه أخوه الحارث كي يكون في صحبتته في طريق العودة.. اصبري يا أمينة وأدعي له بالشفاء وتجلدي"
طال الانتظار ولكن هذه المرة الانتظار أصعب. ففي السابق كان معلوماً موعد عودة القافلة.. أما اليوم فقد أصبح الانتظار أطول.. الوقت أطول بكثير على من لا تعلم كيف تمر الأيام على الغائب عنا، وكيف هو ومتى يعود..

دعت أمينة كئيباً أن يعود إليها زوجها سالمًا، ولكن أنت تدعو وعلى الله الإجابة أو لا.. وكل دعاء إجابته سر عند رب العالمين.. لتشاء الإرادة الإلهية

اشتد مرض عبد الله عند أخواله حتى توفاه الله.. دفن في المدينة المنورة وحسبما يعتقد في دار تُسمى "دار النابغة" وهو رجل من بني عدي بن النجار من أخواله

عاد الحارث دون أخيه، ونقل الخبر إلى أمنة، والذي كان له وقع الصاعقة عليها.. لم تبك في بداية الأمر من صدمتها، وظل بصرفها شاخصاً ينظر إلى الباب متوقعة ظهور الغائب.

يجب أن أذكر للأمانة هنا أن معظم العلماء قد ذكروا أن وفاة عبد الله قد كانت وأمنة حامل إلا أن بعضهم قد قال إنه مات ومحمد عمره شهران فقط.. والمرجح أنه مات وأمنة حامل في شهرين..

مرت الأيام وأمنة لا تستطيع التغلب على صدمتها أتى أهلها من قوم بني زهرة ليبقوا معها وحولها ويخففوا عنها أحزانها، ولكنها كانت في حالة رفض أو تصديق. كانت تكرر دوماً الأسئلة التي تتردد في رأسها:

- "لم كان الفداء إن كان لن يطيل في عمره؟"

- "لم تقدّم إليها واختارها دون فتيات الجزيرة العربية إن كان لن يعيش معها؟"

والكثير والكثير من الأسئلة الأخرى حتى خاف عليها أهلها وعلى صحتها وعلى صحة الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها، إلى أن كان ذات ليلة وبعد نوبة بكاء شديد نامت من تعبها، وما إن استيقظت حتى تغير حالها. أنزل الله سكينته على قلبها بمفتاح بسيط: أعطاه إجابة على أسئلتها وفي معرفة الإجابات والحكمة من الأحداث راحة لنا. قالت أمنة لكل من كان حولها:

- "الحكمة في الولد الذي أحمله. تزوجت فقط كي أنجب هذا الطفل إذاً يجب أن أحافظ عليه"

مكتبة

"يا رب لا أرجو لهم سواك"

يا رب فامنع منهم حماك"

إن عدو البيت من عاداك"

إنهم لن يقهروا قواك"

maktabbah.blogspot.com

عبد المطلب

مكتبة

"إني أنا رب إيل، وإن للبيت ربا سيمنعه"

عبد المطلب

تغيرت بعدها أحوال آمنة.. أصبحت أكثر هدوءًا وسكينة وأمضت أيام حملها في انتظار القادم إلى عالمها كي يعوضها غياب الزوج والحبيب.. كان تحرك الطفل في أحشائها يطمئنها ويخفف عنها.

مرت الشهور واقترب موعد الولادة.. وتزامن هذا مع تداول أخبار حرب وشيكة. أبرهة الحبشي يستعد لضرب الكعبة.

ولأن الكعبة لها رب يحميها فعلاً، فقد أرسل الله عليهم جماعات من الطير الأبايل وهو اللفظ الذي ذكر في القرآن الكريم. وأبايل تعني جماعات من الطيور.

قيل في وصف هذه الطيور أنها "كانت طيرًا من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها، وكانت لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب".

وقيل: "بل كانت أشباه الوطاويط حمراء وسوداء" وقالوا: "هي طيرٌ حُضِرَ لها مناقير صفر"

المهم أن هذه الطيور أتت أبايل؛ أي جماعات وبدأت ترمي جيش أبرهة

maktabbah.blogspot.com

بحجارة من سجيل أي منطيين وحجر لتتركهم كأوراق الشجر الجافة
الممزقة هكذا حكى عنهم القرآن الكريم.

أما الفيل ويقال إن اسمه كان محمود فكان كلما يُعْطَى أمرًا بالتقدم
للكعبة يبرك على الأرض، وعندما يُطلب منه العودة لليمن يقف ويتقدم..
هكذا حكى في الروايات عن يوم أبرهة.

جدير بالذكر أن اسم "إبرهة" لم يذكر في القرآن الكريم، وأن المؤرخين
هم من حكوا الحكاية، وأن بعضهم قد قال إن أبرهة لم يذهب أصلاً إلى
مكة. وإن أصحاب الفيل قوم آخرون، ولكن هذه هي الرواية الأكثر
انتشاراً؛ لذا ذكرتها.. الحادثة إذاً مؤكدة كونها ذكرت في القرآن الكريم.

واتوقف هنا قليلاً لأقول إن المؤرخين استغربوا من موقف عبد المطلب
من أبرهة ومن ضرب الكعبة.. عندما قال عبارته الشهيرة:

- "إن للبيت رباً سيمنعه".

أي إن للبيت رباً سيمنع أي أذى عنه أو أن للبيت رباً سيحميه..

بعضهم قال إن تصرفه هذا يدل على ضعف العرب وخوفهم من جيش
قوي لم يكونوا مستعدين له. وبعضهم قال إن عبد المطلب كان يعلم أن
مَنْ بنى الكعبة هو نبي الله إبراهيم وعلى دراية تامة بقدسيته فكان
داخله يقين أن ربها هو حاميتها.. وأنا أميل للقول الثاني..

هُزِمَ جيش أبرهة، وعادت الحياة إلى طبيعتها، واطمأنت أمانة؛ فلم تكن
تريد لابن عبد الله أن يُولد بعيداً عن مكة.

ولدت أمانة ابنها في عام الفيل. البعض قال في يوم الفيل وهو قول ضعيف
والبعض قال بعد خمسين يوماً من هزيمة أصحاب الفيل المهم أنه وُلِدَ في
عام الفيل. بدأت الأم الولادة في السحر، كانت أمانة لوحدها مع جاربتها أم
أيمن، وفي رواية أخرى قيل إن والدة عثمان بن أبي العاص كانت معها
أيضاً.. وذكر أن الشفاء أم عبد الرّحمن بن عوف كَانَتْ قَابِلَتْهَا.

في الصباح أرسلت أمينة إلى حماها تخبره بولادة الطفل فأسرع إليها وحمله بين ذراعيه واتجه به إلى الكعبة الشريفة وقف يدعو له ويترحم على والده، الذي كان لا يزال حزنه عليه حيًا فيقلبه. ثم أعاده إلى أمه وخرج للإشراف على الذبائح احتفالاً بالمولود الجديد ووزع منها على أهله وعشيرته وعلى الفقراء والمساكين..

يعتقد إن اسم محمد الذي لم يكن معروفًا كثيرًا في الجزيرة العربية قبل محمد بن عبد الله.. لم يحمله قبله إلا ثلاثة فقط.. كان أحدهم أحد أجداد الشاعر الشهير الفرزدق.. اختاروا هذا الاسم بعد أن علموا من الكتب الأولى أن هناك نبيًا سيأتي وسيكون اسمه محمد.

أما في كتب الأثر فد جاء أن عبد المطلب إنما أسماه محمدًا لرؤيا رآها، قيل إنه رأى في المنام كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ولها طرف في السماء وطرف الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها، فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض في رؤية. وطبعًا الله أعلم. أنا أنقل لكم ما ذكره الناس في كتب الأثر، وبعدها أصبح يتردد في كتب السيرة. ويحكي أيضًا أن ثوبية الأسلمية جارية أبو لهب عندما أخبرته بخبر ولادة الطفل أعتقها. لم يكن يعلم ما تخبئه الأيام له، وأنه سيصبح أسفًا في آية عن النار.

تذكر أنك حملت كتاب وألقيت عليك محبة مني من موقع مكتبة بيت الحصريات ولتحميل المزيد من الكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

اعتلت صحة أمينة بعد الولادة، كحرة حزنها على عبد الله أنهكها. وبدأت المرضعات يأتين إلى قريش لأخذ المواليد والاعتناء بهم، فقد كانت من عادات العرب الأغنياء إرسال الأطفال مع المرضع يبقون معهم حتى

مؤعد فطامهم. وأخذت المرصعات الأطفال إلا محمد لم يجد مرصعة تقبل به ليطمه؛ فقد خشيت المرصعات من عدم وجود أي مقابل مادي..

يئست أمنة من إيجاد من يرضع ابنها إلى أن كان آخر النهار.. عادت إليها حليلة السعدية لتأخذ محمدًا بعد أن تعذر عليها العثور على رضيع آخر.. لم تكن تريد العودة إلى قومها دون أي أطفال حتى لا تسخر منها النساء هناك.. لم تكن تعلم أنها اختارت طفلاً سيكون يوماً ما حديث العالم أجمع.. وكان جزاء الخير خيراً. ما إن وضعت محمدًا على صدرها حتى امتلأ بالحليب الذي روى الطفل وروى ابنها وناما بعمق بعد أن شبعوا..

عاش محمد في البادية أول سنتين من عمره وسط قبيلة بني سعد واحدة من أشهر القبائل العربية وكان أفراد قبيلة حليلة السعيدة يشعرون أنه قد حمل البركة لباديتهم حتى إنهم تمسكوا به عندما حان مؤعد رجوعه إلى أمه..

إعادته حليلة ورجت أمه إبقاءه معها لتعلقها الشديد به واقنعتها بأن جو البادية البعيد عن حر مكة وزحامها أفضل له.. رضيت أمنة؛ فقد كانت صحتها في تدهور مستمر، ليبقى محمد في البادية حتى بلغ الخامسة من عمره.

أصبح محمد في السادسة من عمره.. قررت أمنة أنه قد آن أوان زيارة قبر عبد الله عند أخواله بني عدي بن النجار في المدينة أو يهرب كما كان يطلق عليها..

بدأت تعد العدة والمؤنة وتحدث طفلها عن أبيه وأهله.. كان الطقس حارًا، والمسافة بعيدة، وصحة أمنة لم تكن أبدًا بالجيدة.. انتظرت قافلة كي تسير في ركبها وذهبت إلى الكعبة مع ابنها ودعت ثم اتجهت للقاء الحبيب.. صحبتها في الرحلة جاريتها أم أيمن.

تحركت أمنة ومعها ابنها وجاريتها بركة أم أيمن بعد زيارة أخيرة لقبر عبد الله، ذرفت فيه الكثير من الدموع وكأنها كانت عندما تكون قرب قبره

مكتبة

تشعر بأنفاسه تُطفئ لهيب وحدتها واشتياقها إليه.

ولأن الله يدبّر الأسباب كيفما يرى، وما يراه لا نراه، فهو الأعلّم والأعلى، هبت عاصفة رملية شديدة أثرت صحياً على أمانة التي كانت ضعيفة أصلاً

لفظت الأم أنفاسها الأخيرة أمام طفلها الصغير الذي كان قد سمع عن الموت عندما سأل عن أبيه، ولكن كان عليه أن يراه بعينيه هذه المرة، وأن يكتب عليه ألا ينسى هذا المشهد أبداً.

فبعد سنوات طويلة جداً وأحداث حياتية عديدة عندما نوى محمد الذهاب للحج توقف أمام قبر أمه، زارها وقرأ لها الفاتحة وبكى عليها كثيراً.. فاليتم الحقيقي هو يتم الأم.

كُتِبَ على محمد اليتيم مبكراً. وكتب كثيراً عن أسباب اليتيم. في رأيي إن الألم هو الذي يصقل قلوبنا ويطهرها وهل من ألم أشد على طفل من ألم اليتيم؟ أن يُكْتَبَ عليه ألا يعيش في بيت مع أبوين بل يبقى متنقلاً بين جده وعمه وأن يشار إليه دوماً باليتيم. الألم هو الذي يجعلنا نرتقي، الألم هو الذي يجعلنا نتجه لله تعالى، الألم من الفقد هو الذي يلقننا أقسى دروس الحياة وأصدقها: أننا منه وإليه..

يقال إن في لحظات أمانة الأخيرة شدت إليها طفلها محمد، وهمست له بصوت ضعيف ما يشبه الوصية، وإن كانت أقرب للحكمة أو الدرس الذي تعلمه الطفل مبكراً جداً "يا نبي. كل جديد بال وكل آت قريب وكل حي ميت" ويقال بأن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - قد قال: "ما نسيتهما ما حييت".

(١)

أسية بنت مزاحم

- ١ -

(لقد خلقنا الإنسان في كبد) (سورة البلد، الآية ٤).

من قال إن الأم هي فقط الرحم الذي أنجب؟ بعض الأمهات البديلات أعطين أولادهن حنانًا يجعلهن في مرتبة أعلى من الأم التي أنجبت.

وهناك مثل شعبي يقول: "هي الأم التي خلفت ولا اللي ربت؟" والله يسخر ناس من أجل ناس.. ولعل الله جعل أمية تتزوج فرعون فقط كي تنقذ موسى..

السيدة أسية أم بديلة وضع الله في قلبها حنانًا جعلها واحدة من أعظم نساء العالمين، مع السيدة مريم العذراء، والسيدة خديجة، والسيدة فاطمة الزهراء..

اسمها في اليهودية "بيثيا"، وفي المسيحية ميرسي أو ميرو وفي الإسلام أسية.. وفي الفرعونية هي "إيست نفرت".

كثير من الروايات حكّت حول أصل السيدة أسية ونسبها.. منهم من قال إنها بنت مزاحم بن عبيد الديان بن الوليد، وأن أباه كان حاكفًا لإحدى الممالك التي كانت تحت الحكم المصري، وذلك خلال عصر الدولة الفرعونية الحديثة..

ومنهم من قال إنها ابنة مزاحم زعيم قبيلة بدوية هامة وكان يحظى باحترام الجميع. وقيل إنها ابنة مزاحم بن عبيد بن الريان ابن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام.. كما ذكر بعض المؤرخين أن آسيا كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، وقال عالم اللغة والفقهاء

والسيرة الأندلسي أبو القاسم السهيلي إنها كانت عمّة موسى..

حيكت حولها الكثير من الأساطير منها أسطورة إسكوتلاندية عن أميرة
مصرية ابنة فرعون رفضت اضهاد بني إسرائيل واختفت أثناء الخروج
من مصر، وتزوجت من أمير يوناني وسافرا إلى إسكوتلندا لينجبا ابناً قام
بتأسيس أيرلندا..

أما في العهد القديم فاسمها بيثيا أو ابنة الإله، وفيه ذكر أنها عثرت على
الطفل، ويعتقد اليهود أنها تمسكت به فطردها فرعون لتتزوج من "مارد
العبراني" وتنجب منه ثلاثة أولاد. أما في الإسلام فالحكاية مختلفة تماماً،
وسأذكرها هنا كما جاءت في القرآن الكريم

(وما أمر فرعون برشيد) (سورة هود، الآية ٩٧).

كانت مصر وقتها في أحسن حال بعد أن نجح أحمرس في طرد
الهكسوس بعد سنين من المعاناة.. فقد حكم الهكسوس مصر أكثر من
مئتي سنة..

بدأت حكاية أسية وفرعون عندما رآها تملأ جرتها بالماء على شاطئ
النهر. كانت في الرابعة عشر من عمرها ممشوقة القوام.. جميلة.. وقع في
حبها منذ اللحظة الأولى، وحاول الإمساك بيدها إلا أنها فرت مسرعة من
أمامه.

فطلب من حارسه الخاص الذهاب وتقضي معلومات عنها..

فعل.. وعاد إليه بنصيحة ألا يأخذها أمةً وإلا أثارت عليه القبائل في
البادية التي ترفض أن تكون بناتهن سبايا.. وأخذ فرعون بالنصيحة رغم
أنه كان متزوجاً من امرأتين قبلها، وكان لديه حسب ما يقال ٩٦ ولداً
وليس كل ما يقال أكيداً دوماً. نذكره هنا كما قرأناه. إنه الحب الذي جعل
هذا الرجل القاسي يصرُّ على الزواج من هذه البنية

عندما طلب فرعون من مزاحم تزويجه ابنته حزن؛ فقد كان معروفاً عن هذا الفرعون شدته. وابنة مزاحم رقيقة ومرهفة الحس ولكن لم يكن يمتلك جرأة المجازفة بالرفض. وافق مضطراً. ووافقت أسية أيضاً مضطرة. فرغم صغر سنها إلا أنها كانت حكيمة واعية لما يمكن أن يحدث لو رفضت .

أكثر سؤال حير المؤرخين كان عن من يكون هذا الفرعون الذي تزوجته أسية وعاش في قصره موسى. وهل فرعون موسى طفل هو نفسه فرعون الخروج؟ الإجابات كثيرة جداً لا نستطيع أن نجزم بأي واحدة ونؤكد أنها الأصدق فكلها مقنعة لأنها مصحوبة بأدلة!!

قيل إن فرعون الخروج هو رمسيس الثاني، وقيل إنه أحمس، وقيل إنه تحتمس الثاني وتحتمس الثالث، وقيل أمنحتب الثاني، وقال البعض إنه توت عنخ آمون.. وكل من قال لديه أدلته..

مؤرخ يهودي يدعى يوسف بن متى، عاش في القرن الأول الميلادي قال إن مانيتون المؤرخ المصري والكاهن المولود في مدينة سمنود، محافظة الغربية والذي كتب تاريخ مصر القديمة حوالي عام ٢٨٠ ق.م في عهد بطليموس الثاني قد كتب أن العابيرة (أو الخابيرة) هم أنفسهم العبرانيون أي بنو إسرائيل وهم أيضاً الهكسوس الذين حكموا مصر.. هذه نظرية..

نظرية أخرى تقول إنه تحتمس الثاني..

هذا الرأي كان لبعض العلماء الفرنسيين الذين اعتمدوا على حساب التقويمات، وبحسبة معينة أكدوا أن موسى خرج من مصر في التاسع من إبريل عام ١٤٩٥ ق.م في ذلك الوقت كان تحتمس الثاني ملكاً على البلاد، وأيد هذه النظرية بما ذكره المؤرخون من أن مومياء تحتمس الثاني كانت تعاني من أورام جلدية. وبما أن إحدى الضربات العشر التي أصابت مصر وقتها وذكرتها التوراة كانت الدامل والطفح الجلدي؛ فاعتبروا هذا دليلاً

مادياً على أن تحتتمس الثاني هو فرعون الخروج.

النظرية الثالثة تقول إنه كان تحتتمس الثالث..

ويعتمدون على فقرة في التوراة تقول "وكان في السنة الـ ٤٨٠ لخروج بني إسرائيل من مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على بني إسرائيل في شهر زيو هو الشهر الثاني أنه بنى البيت الرب"

ولما كان حكم سليمان قد بدأ عام ٩٧٠ ق.م فالعام الرابع هو ٩٦٦ ق.م فإذا أضفنا إليها الـ ٤٨٠ سنة لعدنا إلى عام ١٤٤٦ ق.م - إذ قبل الميلاد تحسب السنوات إلى الوراء - أي في أواخر حكم تحتتمس الثالث (١٤٦٨ - ١٤٣٦ ق.م).

النظرية الرابعة تقول إن فرعون الخروج هو "أمنحتب الثاني" وهذا الرأي قال به الكاتب الفرنسي دانييل روبس Daniel Rops في كتابه شعب التوراة Le peuple de la Bible.

المؤرخ المصري الشهير مانيتون كتب في القرن الثالث قبل الميلاد تاريخ مصر والنسخة وضعت في مكتبة الإسكندرية، ومن حسن الحظ أنها تُرجمت لليونانية فنجت من حريق المكتبة الشهير ومانيتون قال بصراحة إن موسى كان مصرياً، وإن موسى عاش في أيام أمنحتب الثالث والد إخناتون.

نظرية أخرى قالها عالم النفس اليهودي الشهير سيجموند فرويد، وذكرت في كتاب "سيجموند فرويد - موسى مصرياً" الذي قام بترجمته محمد العزب موسى.

وفيه ذكر أن موسى مصري وليس من بني إسرائيل، وأن الديانة الموسوية مستقاة من عقيدة إخناتون..

أما أكثر الآراء شيوعاً خاصة في الغرب وفي أفلام هوليوود التي حكى حكاية النبي موسى فهي أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني، وأصحاب هذا الرأي كثر، أشهرهم الأب ديفو R.P de Vaux، وهو مدير مدرسة

الكتاب المقدس ورأيه مبني على مكان معيشة بني إسرائيل في أرض جاسان وعاصمة رمسيس الثاني الجديدة في الشمال التي تتيح التقاط موسى من النهر، الأب ديقو يؤمن بأن الفرعون قد مات غرقاً وهو يطارد الهاريين، وهو أيضاً يقول إن الخروج قد حدث في النصف الأول من حكم رمسيس الثاني، مع أن غرق الفرعون يعني نهاية حكمه لا منتصفه..

والحقيقة أن نظرية فرعون موسى هو رمسيس الثاني تتفق مع كثير من النقاط التي يجب توافرها في ذلك الفرعون.. وهي أيضاً النظرية التي يرزدها اليهود.

maktabbah.blogspot.com

هذا الفرعون أيًا ما كان، اسمه فرعون أو أحد الأسماء التي ذكرتها قبلاً، كان يعاني من نبوءة قالها له أحد الكهنة من أن طفلاً سيخرج من بني إسرائيل من أرض جاسان سيكون السبب في نهاية ملكه وهلاكه..

لذا أصدر أوامره بقتل مواليد بني إسرائيل عامًا وتركهم عامًا.

وجاسان هي المعروفة الآن بـ "الشرقية". أعطاه النبي يوسف لأبيه يعقوب وإخوته عندما أتوا من بلاد كنعان أو بلاد الشام، فسكنوا فيها هم وذريتهم من بعدهم نحو مائتي سنة. وكانت تُعدّ من "أفضل الأرض" وهي جزء من منطقة تسمى "أرض رعمرسيس" التي منها انطلق بنو إسرائيل في رحلة خروجهم من مصر.

maktabbah.blogspot.com

تزوجت أسية من فرعون، وانتقلت إلى القصر، وعاشت في نعيم تحت إمرتها الكثير من الخدم.. إلا أنها بقيت متواضعة على عكس زوجها فرعون الذي كان في الخامسة والثلاثين تقريباً عندما تزوجا وكان وسيقاً إلا أنه كان قاسياً لا يعير المشاعر أهمية. تزوجت أسية الناعمة الطيبة أخت الرجال وأكثرهم غروراً على وجه الأرض حتى إن ربنا الكريم يصفه لنا في عدة آيات بالكبر والإسراف والطغيان.. والعلو في الأرض وأن أمره ليس برشيد (وما أمر فرعون برشيد)

ذات يوم، وبينما كانت جالسة في شرفتها على نهر النيل.. بين خدمها وحشمها؛ فهي الزوجة المفضلة لفرعون التي تتمتع بحضوة يشعر بها

maktabbah.blogspot.com

الجميع، دخلت عليها ابنتها "إيسيت نفرت" ومعها جواربها وهن يحملن صندوقًا صغيرًا.

فتحت أسية الصندوق فوجدت عينين تنظران إليها. طفل صغير في الصندوق. وألقى الله محبته في قلب أسية. وهل الحب إلا من الخالق؟ كل حُب في قلبنا يُقَدِّف به بأمر إلهي. وموصول بمن ألقاه. فما القلوب إلا مضخات يضخ فيها خالقها حب من يريد.

- ٣ -

عاش موسى في القصر مع أسية يحظى بحبها وحنانها، وكانت خيرَ سندٍ له. فقد أنقذت حياته. وذات مرة عندما بلغ الثانية من عمره، دخل فرعون جناح أسية ووجدها تلعب مع الطفل. فركله بقدمه. كره فرعون للطفل لم يقل حتى بعد مرور سنتين على وجوده في القصر.. نظر موسى إلى فرعون بخوفٍ شديدٍ إلا أنه لم ينس له فعلته.. انتظر حتى نام ثم تسلل إلى غرفته.. وقام بشد شعيرات ذقنه.. فأيقظه مفزوعًا..

وللمرة الثانية يامر فرعون بقتله وتنقذه أسية.. هذه المرة تحايلت، فقالت:

- "إنه طفل لا يفقه شيئًا".

maktabbah.blogspot.com

فأجابها:

- "هذا عدو لي".

فقالت:

- "إنه لا يعقل".

وكي تدرا عنه عقوبة فرعون، نادت على إحدى الجاربات وطلبت منها إحضار ثمرة وجمرة ووضعتهما أمام موسى ففعلت.. وكدليل أنه لا يقصد ما يفعل قام الطفل بأخذ الجمرة بدلًا من الثمرة.. ووضعها في فمه.. وأصحاب هذه الرواية يقولون إنه من هنا جاءت لفظة موسى.. هذا ما تكرر

maktabbah.blogspot.com

ذكره، ولكن لو فكرنا لحظة لوجدنا أنه صحيح أن موسى كان عنده ثقل لسان وعجمة أي عدم فصاحة في الكلام، ولكن كيف لطفل أن يمسك جمرة فلا تلسعه ويضعها في فمه فتلسعه؟ هذه الرواية منتشرة جدًا، حدثت أم لا غير مؤكد، إلا أن المؤكد أن موسى عليه السلام كان الثغ..

عندما نادى موسى بالتوحيد آمنت أسية بالله واتبعته.. ويقال إن إيمانها جاء بعد أن غلب موسى سحرة فرعون، ويقال إنها كانت مؤمنة قبل زواجها من فرعون منذ طفولتها في البادية.. آمنت دون أن تخبر زوجها الذي كان يطلب من شعبه اعتباره إلهًا، وكان يردد دومًا: أنا ربكم الأعلى فاعبدون.

كبر موسى وجاء حادث قتلته للشباب المصري عندما استنجد به العبراني.. ليغادر بعدها مصر إلى أرض مدين وهي مدينة تقع بالقرب من تبوك في المملكة العربية السعودية اليوم..

عاش موسى هناك عشر سنوات كاملة أجيًا وراعيًا للغنم مقابل طعامه وإقامته، ونعم بالاستقرار الزوجي والأسري والعملي. وبعدها جاء أمر الله بالعودة إلى مصر..

-٤-

تعدّب من تعدّب من شعب مصر من الضربات العشر إلا أسية.. لقربها من ربها وإيمانها. وتحكي كتب العهد القديم كيف أن الله قد نجّاه من العقوبات العشر التي أنزلها على تعالى بفرعون وقومه قبل المواجهة الحاسمة بينه وبين موسى، والضربات العشر هي:

١ - تحول نهر النيل إلى دماء ولم يعد المصريون يستطيعون الشرب من مائه.

٢ - انتشرت الضفادع في كل أنحاء مصر بعد أن هجروا مياه النيل.

٣ - كل غبار مصر تحوّل إلى بقّ وقمل وانتشر بين الأهالي.

٤ - انتشر الذباب في كل مكان بشكل لا يمكن السيطرة عليه.

٥ - نفق القطيع وخسارة القطيع عند أصحابه مثل خسارة الثروة.

٦ - بدا البزء وهو نوع من الثلوج الصغيرة ينهمر على مصر دون توقف

٧ - انتشر الجراد وأتى على الأخضر واليابس وأظلمت الدنيا من الأعداد التي هاجمت البلاد فعاشت مصر في ظلام تام مدة ثلاثة أيام.

٨ - رمى موسى في السماء رمادا فتحوّل إلى دمامل انتشرت في أجساد المصريين
maktabbah.blogspot.com

٩ - ضربة الرعد والبرد والنار.

١٠ - موت الأطفال البكور للمصريين.

عانى المصريون ونجت أسية من الضربات العشر.. لم تُصَب باي أذى، وبعد الضربة الأخيرة طرد المصريون بني إسرائيل، فخرجوا من مصر لكن عوضاً عن أن يقضوا ثلاثة أيام في البرية قضوا فيها ٤٠ سنة.

- ٥ -

كان الخوف قد سيطر على فرعون من إيمان الناس بدين موسى، وبدأ ينشر جواسيسه في القصر ليقوموا بنقل أخبار من آمن به كانوا يقومون بنقل الأخبار خاصة إلى وزير دفاعه «هامان» الذي جن جنونه لانتشار دين جديد، وأخذ يخطط ويتفنن في أساليب التعذيب لكل من آمن برب موسى..

وجاء حادث الماشطة ليقلب الموازين كلها وليتسبب في نهاية أسية..

والماشطة مهنة من تقوم بتزيين النساء..

رمى فرعون الماشطة الموحدة في النار. رماها هي وأولادها. وكان هذا الحادث الجلل أكبر من قدرة أسية على الاحتمال. ثارت ثورة عارمة وأعلنت لفرعون إيمانها بدين موسى. فوجئ واحتار. كيف له أن يتصرف

maktabbah.blogspot.com

معها؟ وإذا ما تسلل هذا الدين إلى قصره فماذا سيكون حال العوام؟

في أول الأمر لجأ إلى والدتها عليها تردها إلى صوابها، وحاول كثيرًا إثناءها عن قرارها فقد كان يجلبها ويحترمها فعلاً ولم يكن يريد فقدها فهي جدته لأبيه.

لا إن أسية كانت قد ذاقت حلاوة الاعتراف بأمرٍ كان يجثم على صدرها طويلاً فليس أصعب من إخفاء أمرٍ كهذا. وما أحلى الجهر بالإيمان بعد فترة كتمان.

ثار فرعون أكثر فأكثر فخرج على الفلا وأعلن أن أسية تعبد إلهاً غيره. وكالعادة لا بُدَّ وأن تجد فيمثل هذه الأمور المتعطشين للدماء.. فتعالت النداءات تطالب بقتل أسية..

في البداية حبسها فرعون في غرفتها ومنع عنها الطعام إلا القليل الذي يبقيها على قيد الحياة.. ولم تتراجع.. بل زاد تمسكها بدينها وبدأت تمارس شعائرها في غرفتها غير أبهة أن يراها أحد.. ومع الوقت ازداد غضب فرعون، وكان في كل مرة يسألها إن كانت قد تراجعت عن إيمانها بالله، ترد:

- "يا فرعون، كفرت بك، ولا أبالي. وأمنت برب موسى وهارون".

وبعد أن فاض الكيل بفرعون طلب من أتباعه التفنن في تعذيبها..

فدقوا في الأرض أوتاداً وشدوا إليها يديها وقدميها ثم ربطوها وصلبوها في شجرة تحت قيظ الشمس الحارقة، وتركوها في لهيب الصحراء تحت أشعة الشمس.. وتخيل فرعون أنها ستعود إلى رشدها بعد العذاب.. ولكن العكس حدث. أنار الله بصيرة أسية وكشف الله لها موقعها في الجنة، فابتسمت ثم ضحكت للبشرى استغرب فرعون الذي كان يشرف على تعذيبها بنفسه رد فعلها واعتقد أنها أصيبت بالجنون من التعذيب فأمر بوضع صخرة على ظهرها. ولكنها نظرت إلى وقالت:

(رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من

مكتبة

(القوم الظالمين)

وقد كان.. أحاطت بها الملائكة وفاضت روحها قبل أن توضع الصخرة عليها.. رحمة من رب العالمين لتصعد وتتبوا مقعدها من الجنة..

لو تفكرنا في حياة هذه المرأة لوجدنا أن الله كان دوماً سنداً لها لأنها كانت سنداً لنبيه نجت موسى من الموت. كانت سنداً له في الطفولة وعندما شب وأصبح رجلاً ونبيًا. عرفت قصته ورغم أنه لم يكن ولداً لها إلا أنها منحته في القصر عناية وعلفاً وتربية أشبه بتربية أولاد الملوك. وكان الله سنداً مرة ثانية لها في سنين حياتها وهي تعيش مع رجل يختلف عنها، إلا أن الله جعل كلمتها مسموعة عنده. جعل حبها في قلب فرعون الجبار نقطة ضعفه..

وكان الله سنداً لها عندما عذبها فرعون في آخر أيامها فأرسل إليها ملائكة يحملونها إلى السماء..

سلامٌ سلامٌ على قلب أسية.. الذي أعطى دون حساب فأعطاه الله بيتاً في الجنة ووضعها في الصف الأول لنساء العالمين..

عندما كان عليها أن تختار ما بين حياة مترفة ممزوجة بشركٍ وموتٍ يوصلها لجنة اختارت الموت.. أي اختبار هذا الذي عشته يا أسية فاجتزته بجدارة..

حكاية أسية مفتاحها الحب.. أحب فرعون أسية فقبل من أجلها بالطفل الذي أحبته.. أحببت أسية ربها ونبيها فتبوات مقعدها في الجنة.. وهل مصير المحبين إلا الجنة؟

اعتراف خاص: لقد أقت أسية بمحبتها علي..

بيت الحمريات

maktabbah.blogspot.com

(١)

فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم -

- ١ -

بيت الحمريات

في وصف أبيها:

"ابتعته الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير رحمته".

مكتبة

فاطمة الزهراء عن أبيها محمد

منذ بدأت هذا الكتاب عن فكرة «السند»، وأنا أحاول أن أختار مواقف في حياة من نقندي بهم كي نتعلم، كيف نكون سنذاً لغيرنا، كيف نكون سنذاً لمن تربطنا بهم صلة، كيف نكون سنذاً لمن نحب.. وصلنا في صفحات السند إلى الابنة..

كيف يجب أن تكون سنذاً لوالديها.. ولم يطل تفكيري قبل الاختيار.. اختيار من أخذها مثلاً للابنة، وأي ابنة أفضل من السيدة فاطمة الزهراء؟ البتول، الحانية؛ لأنها كانت تحن حنان الأم على أبيها النبي محمد، وعلى زوجها وأولادها، والأيتام والمساكين، هي "أم الأئمة" نسبةً إلى ولديها الحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً.. هي الطاهرة، المنصورة، الصادقة، والريحانة.. هذه بعض من ألقابها، وإن كانت الزهراء هي الأكثر شهرة.. والزهراء لأن لونها كان أبيض مشرباً بحمرة..

لماذا فاطمة الزهراء؟ أول الأسباب أني أحبها.. وأحب أباهما عليه الصلاة والسلام.. وحب آل البيت فرض علينا.. وحب من يحب رسول الله فرض علينا.. فرض محبة.. فالمحب يحب من يحب حبيبه.. فكيف إن كان الحبيب محمداً؟

مكتبة

السبب الآخر للاختيار: كنيته التي اختصر

فيها الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، كل شيء عندما أطلق عليها لقب «أم أبيها».. وعلاقة الابنة بالأب دوما علاقة خاصة جدًا، تمامًا مثل علاقة الابن بأمه، وعلاقة السيدة فاطمة بسيدنا محمد كانت شديدة الخصوصية.

ظلم التاريخ فاطمة كثيرًا، لم يعطها حقها الذي تستحقه، فهي تستحق الكثير والكثير من الكتابات حول تفاصيل حياتها كي يُقتدى بها..

وكان يوم ولادتها يومًا تاريخيًا لا يُنسى. وُلدت في اليوم الذي تم فيه تجديد بناء الكعبة ولو فكرنا للحظات في العلاقة بين الحديثين لوجدنا أن الله أراد أن يكون يوم تجديد الكعبة هو يوم ولادة من سيخرج منها نسل النبي وال بيته .

أبوها هو من أسماها «فاطمة»، وقيل إن اسمها جاء إلهامًا من الله وقيل إن المقصود أنها فطمت هي وذريتها من النار.. وُلدت فاطمة وأرضعتها أمها خديجة بنفسها، مع أن المعتاد وقتها كان الاعتماد على المرضعات.

كانت الابنة الرابعة بعد ثلاث بنات.. وفرح بها النبي محمد فرحًا شديدًا؛ إذ لم يكن كالرجال في الجاهلية الذين يفضلون الذكور على الإناث في زمن كانت فيه ثواد الإناث وكان الرجل إن رزق بابنة تعامل مثل شخص أصابه عار..

على العكس تمامًا فرح النبي محمد بفاطمة وكان يقول لزوجته السيدة خديجة:

- "يا خديجة، إنها نسمة طيبة، إنها نسمة مباركة".

وكان الرسول يحمل فاطمة كثيرًا ويقبلها، فقد كان أبًا حنونًا عطوفًا وهي صفات وصفها به

رب العباد عندما قال له:

مكتبة

السبب الآخر للاختيار: كنيته التي اختصر

فيها الرسول، عليه أفضل الصلاة والسلام، كل شيء عندما أطلق عليها لقب «أم أبيها».. وعلاقة الابنة بالأب دوما علاقة خاصة جدًا، تمامًا مثل علاقة الابن بأمه، وعلاقة السيدة فاطمة بسيدنا محمد كانت شديدة الخصوصية.

ظلم التاريخ فاطمة كثيرًا، لم يعطها حقها الذي تستحقه، فهي تستحق الكثير والكثير من الكتابات حول تفاصيل حياتها كي يُقتدى بها..

وكان يوم ولادتها يومًا تاريخيًا لا يُنسى. وُلدت في اليوم الذي تم فيه تجديد بناء الكعبة ولو فكرنا للحظات في العلاقة بين الحديثين لوجدنا أن الله أراد أن يكون يوم تجديد الكعبة هو يوم ولادة من سيخرج منها نسل النبي وال بيته .

أبوها هو من أسماها «فاطمة»، وقيل إن اسمها جاء إلهامًا من الله وقيل إن المقصود أنها فطمت هي وذريتها من النار.. وُلدت فاطمة وأرضعتها أمها خديجة بنفسها، مع أن المعتاد وقتها كان الاعتماد على المرضعات.

كانت الابنة الرابعة بعد ثلاث بنات.. وفرح بها النبي محمد فرحًا شديدًا؛ إذ لم يكن كالرجال في الجاهلية الذين يفضلون الذكور على الإناث في زمن كانت فيه ثواد الإناث وكان الرجل إن رزق بابنة تعامل مثل شخص أصابه عار..

على العكس تمامًا فرح النبي محمد بفاطمة وكان يقول لزوجته السيدة خديجة:

- "يا خديجة، إنها نسمة طيبة، إنها نسمة مباركة".

وكان الرسول يحمل فاطمة كثيرًا ويقبلها، فقد كان أبًا حنونًا عطوفًا وهي صفات وصفها به

رب العباد عندما قال له:

أي أن لين القلب ميزة جعلت الناس تتجمع حول النبي. ودراسات علماء النفس الحديث قد أثبتت أن حنان الأب على ابنته أفضل دعامة لشخصية سوية فمن لم تشبع من حنان أبيها عاشت عمرها تبحث عنه.

- ٢ -

بيتنا الحمريات

"المؤمن ينظر بنور الله تعالى"

فاطمة الزهراء maktabbah.blogspot.com

هبط الوحي على رسول الله وفاطمة لا تزال طفلة.. فتربت وهي تتعلم تعاليم الإسلام من أبيها وأمها وأخواتها البنات. تعلمت الصلاة والذكر وكيف تعامل الله في تفاصيل حياتها اليومية.. وهل الدين أصلًا إلا أخلاقًا ومعاملة وضعها الله في شكل تشريع كي يعلم البشر أن يكونوا أفضل، وما الدين إلا أن تعامل الله وكأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك.. وهذه هي مرتبة الإحسان..

عندما بلغت فاطمة السابعة من عمرها، ورغم أنها فتاة وصغيرة إلا أنه ذكر اسمها حين طلب من قريش اعتناق الإسلام فقال عليه الصلاة والسلام

"يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اسْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ، لَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَعْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةَ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أَعْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أَعْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"

لماذا ذكرها رسول الله وهي الطفلة التي لم تبلغ بعد ولم يتم تكليفها؟ لعدة أسباب أذكر منها أولاً أنه أراد أن يرسل لقريش رسالة واضحة أن أكثر الناس قربًا لقلبه وأحبهم إليه لا يستثنون من وجوب اتباع الدين وتقوى الله..

ثانيها: إنه كان يريد القول إن الكبير والصغير يجب أن يسير على درب

وثالثها: إن لم تكن أول هذه الأسباب أنه أراد لفاطمة أن تعرف قدرها، وأنه يحضرها لمكانتها التي ستكون لها في التاريخ كواحدة من فضليات نساء العالمين.

لنا أن نتخيل كيف كانت حياة هذه الطفلة التي كانت تمشي وراء أبيها في أحياء مكة، تسمع ما يقوله له الذين لا يؤمنون به ومعروف عن أهل مكة أنهم كانوا أشداء في التعامل.. الطفلة فاطمة عانت كثيرًا بسبب دعوة والدها؛ ففي إحدى المرات خرجت وراءه كالعادة، وبينما هو ساجد أمام الكعبة إذا بعقبة بن أبي معيط وقد كان رجلاً معروفًا أنه شقي أي بلطجي بلغة اليوم يقترب من أبيها بـ "سلا جزور" - وسلا الجزور هو مشيمة الناقة - ويقذفه على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي بقي ساجدًا ولم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة فأخذته عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك، كيف لطفلة أن تنسى مشهدًا هذا؟ كيف لطفلة في بداية حياتها أن ترى هذا القدر من العنف ضد أقرب الناس لقلبها دون أن يترك أثرًا؟ صحيح أن أبا بكر تدخل ودافع عن رسول الله وصرف عنه الموجودين وهو يصرخ فيهم قائلاً:

- "اتقتلون رجلاً يقول الله ربي؟"

ولكن ما حدث أمام فاطمة من أحداث في طفولتها جعلها تميل دومًا للحزن..

"البشر في وجه المؤمن يوجب لصاحبه الجنة، والبشر في وجه المعاند المعادي يقي صاحبه عذاب النار"

فاطمة الزهراء

تجربة أخرى مرت بها الطفلة فاطمة تركت داخلها أثرًا شديدًا؛ إذ بينما كانت تسير في شوارع مكة إذ رأت مجموعة من رجال قريش يتحدثون

وسمعتهم يتفقون هذه المرة على قتل أبيها. خافت الطفلة وركضت مسرعة إلى منزلها وألقت بنفسها في حضن أبيها، وأخبرته ما ينتوي القوم فعله. طمأنها رسول الله قائلاً لها إنه في حفظ ورعاية الله؛ لذا لن يستطيع أحد المساس به..

وكي يثبت لها كلامه لم يمكث في منزله خائفاً بل خرج إلى المسجد ليصلي.. جلس على الأرض ثم أمسك بحفنة تراب ورمأها نحوهم وهو يقول: "شاهت الوجوه"..

وحدث ما كان يتوقعه لم يتحرك كائن نحوه فعاد إلى المنزل لتتعلم ابنته فاطمة مما حدث درساً لن تنساه ما عاشت؛ وهو أن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، وأن من كان الله معه لا يجب أن يخاف من البشر.

ويحكي التاريخ مواقف عديدة تثبت أن فاطمة كانت فتاة شجاعة وصاحبة موقف وراي، وأنها لا تخاف وتعلم جيداً كيف تأخذ حقها.

ذات مرة عندما مرت من أمام أبي جهل وهو الاسم الذي أطلقه والدها على عمرو بن أبي هشام رمقها بنظرة قاسية ثم لطمها لطمه شديدة وضع فيها كل ما كان يحمله في قلبه من حقد وغل على أبيها. تألمت فاطمة جداً، أولاً من الضربة، ثانياً من تطاول هذا الرجل عليها كفتاة إذ لم يكن ما فعله من شيم العرب، فالمجتمع الجاهلي كانت له مبادئه، من بينها عدم التعدي على النساء.

نظرت إليه فاطمة باحتقار شديد وقررت عدم الصمت.. ذهبت إلى أبي سفيان الذي كان لا يزال على جاهليته إلا أنه كان أحد سادة قريش وقصت عليه ما حدث..

فثار أبو سفيان وانحاز للحق، وأخذ فاطمة وذهب بها إلى أبي جهل، وطلب منها أن ترد له اللطمه ففعلت.. وأخذت حقها منه ولم يستطع أن ينطق بكلمة..

وأصبح موقفه مخجلاً أمام كل قريش..

مكتبة
عادت فاطمة إلى أبيها وحكت له ما حدث فدعا رسول الله قائلا: "اللهم لا تنسها لأبي سفيان".

وقد كان إذ أسلم أبو سفيان في عام الفتح .

- ٤ -

بيت الحمريات
في فضل مقام الأم:

"الزم رجليها فإن الجنة تحت أقدامها".

maktabbah.blogspot.com

فاطمة الزهراء

مكتبة
أصبحت فاطمة في الثانية عشرة من عمرها، وبدأت تجربة جديدة صعبة. تجربة الحصار. اتفق أهل مكة على حصار المسلمين في الشَّعب وتضامن مع الرسول أهله حتى من الذين لم يدخلوا الإسلام من بني هاشم وبني عبد المطلب. دخلوا شَّعب أبي طالب وبدأ أهل مكة في حصارهم واتفقوا على مقاطعتهم أي لا يشترون منهم ولا يبيعون. عاش المحاصرون أيامًا طويلة من الحرمان عانوا جوعًا شديدًا ووصل بهم الأمر إلى أكل أوراق الشجر ورات فاطمة أمها خديجة سيدة سيدات قريش والتي كانت واحدة من أغنى أغنيائه تتضور جوعًا ولا تستطيع أن تشتري اللقمة لها أو لعائلتها..

maktabbah.blogspot.com

مكتبة
وبدأت تجربة جديدة جعلت الطفلة تكبر قبل الأوان.. سنوات من الجوع الشديد وسوء التغذية.. عاشوا فيها على الكفاف يربطون بطونهم بحجر.. فالحصار صعب جدًا.. وأصعب ما فيه أنه طال كثيرًا.. استمر ثلاث سنوات.. حتى مرضت خديجة..

رات الابنة والدتها تتألم بشدة وفي نفس الوقت تخفي ألمها عن زوجها. فكانت تنهض ما إن يدخل لتسري عنه وتخفف من إحساسه بالقلق على أهله المحاصرين.

عاشت فاطمة في الفترة التي تشهد نمو الفتاة عاطفيًا أروع أمثلة للحب

maktabbah.blogspot.com

مكتبة

والتضحية ما بين والديها..

ثلاث سنوات من الجوع والمعاناة إلى أن انتهى الحصار الذي ترك آثاره النفسية والصحية على الكثيرين وأولهم خديجة..

وكان الابتلاءات لا تريد أن تتوقف لحكمة لا يعلمها إلا الله، مات أبو طالب عم الرسول الذي كان يمنع أي أحد من الاقتراب منه بأي أذى. مات مصدر الحماية وبدأ صفار النفوس في أذية الرسول من بينها مرة قام مجموعة من الصبيان والسفهاء برمي التراب على رأسه وهم يسخرون منه.

عاد النبي إلى المنزل وما إن رآته فاطمة حتى جرت عليه تساعده في تنظيف شعره ودموعها تنهمر على وجهها والنبي يطمئنها ويؤكد لها أن الدين سينتشر كما ينتشر الليل والنهار وأن الحق لا بُدَّ وأن ينتصر..

بدأت آثار الحصار تظهر على خديجة. اشتد مرضها بشكل كبير وكانت فاطمة وأختها أم كلثوم تقومان على رعايتها. شعرت خديجة بدنو أجلها، كان محمد جالساً قربها فأوصته - عليه أفضل الصلاة والسلام بفاطمة - كانت تشفق عليها أن تتركها وهي لا زالت صغيرة.. فطلبت منه قبل موتها ألا يضربها أبداً، وأن يتذكر دوماً أنها يتيمة غريبة..

وفي يوم حزين دخل محمد على خديجة وأخبرها أن جبريل يقرئها السلام، وأن الله يعدها بقصر في الجنة.. وكان ردُّ خديجة قبل الرحيل:

"الله السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام وعلى جبريل السلام" ..

كانت هذه هي كلمات خديجة الأخيرة قبل أن تودع ابنتيها وحبيب عمرها..

بكت فاطمة على فراق أمها وبداخلها في نفس الوقت إحساس بالاطمئنان عليها.. فهي ذاهبة إلى رب كريم أعد لها قصراً من قصور الجنة.

بعد وفاة خديجة اقترحت النساء على رسول الله الزواج ممن تقوم على رعاية بناته فتزوج من سودة بنت زمعة وكانت سيدة خمسينية طيبة.

تزوجها من أجل بناته لا حبًا في الزواج وقتها..

لنا أن نتخيل إحساس فاطمة وامرأة غريبة تدخل البيت لتحل محل أمها.. ولكن فاطمة التي تربت على الإيثار فكرت في راحة أبيها أولاً وتعايشت وبقيت على عنايتها به حتى بعد زواجه من عدة نساء حتى أصبح يطلق عليها "أم أبيها".

وجاء أمر الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة وبصحبه أبو بكر الصديق ولحق بهما بعدها بثلاثة أيام علي بن أبي طالب وبقيت فاطمة، وأم كلثوم أختها، وسودة بنت زمعة في مكة إلى أن أرسل إليهن رسول الله زيد بن حارثة كي يصحبهن إلى المدينة..

ركبن على بعيرهن وحاولن فيه عدم لفت انتباه أحد من قريش، إلا أن أحد السفهاء كان متربصاً لهن وهو الحويرث بن نقيد الذي قام بمطاردتهن ثم نكز بعيرهن فوقعن وأصبن بجراح وهن من لم يبران بعد من أيام الحصار وتأثيره الشديد على صحتهن، حتى إن فاطمة كانت قد أصبحت شديدة النحول والنحافة.. عندما علم الرسول بما حدث تأثر ولم ينس لحويرث هذا الأمر.. حتى إنه عند فتح مكة بعدها بسنوات طويلة طلب من المسلمين أن من يجده يقتله.. وكان موته علي يد علي بن أبي طالب .

أحكي ما سبق لأقول إن حياة فاطمة من البداية لم تكن سهلة، لكنها كانت دوماً في رعاية الرحمن. عاشت طفولة صعبة وهي ترى من يكرهون والدها يتربصون به عانت بعدها سنوات الحصار دون طعام، حتى إن المحاصرين وصل بهم الأمر إلى أكل ورق الشجر، فاعتلت صحتها بسبب قلة الطعام ولم تتذمر.. بعدها ماتت والدتها أحب الناس إلى قلبها وتزوج والدها. كلها اختبارات صعبة على فتاة في مقتبل عمرها..

كان الصحابة يعلمون قيمة مصاهرة رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام. وكانوا يتمنون لفاطمة من يليق بها.. بعد أن رفض الشيخان أبو بكر وعمر أشار الأخير على علي أن يذهب ويخطب فاطمة.. كان علي في الثانية والعشرين من عمره، فقيرًا جدًا لا يملك شيئًا إلا اسم عائلته

وقرأته من النبي.. تشجع وذهب إلى والد فاطمة - محمد - ، ووقف أمامه صامتًا لفترة حتى سأله رسول الله:

- ما جاء بك؟ ألك حاجة؟

فسكت علي ولم يجب.. فقال له محمد:

- لعلك جئت تخطب فاطمة؟

فقال علي:

- نعم

فقال له النبي محمد: «مرحبا وأهلاً»..

فلم يعرف علي إن كان هذا الكلام يعني موافقة أم لا، فصمت.. فما كان من رسول الله إلا أن أمهله حتى يأخذ رأيها.. وذهب إلى فاطمة وسألها:

- ما رأيك في ابن عمك علي بن أبي طالب؟ فقد طلبك للزواج.

فبكت فاطمة وقالت لأبيها:

- كأنك يا أبي قد ادخرتني لفقير قريش.

وكان علي فعلاً فقيراً جداً

فما كان من أبيها إلا أن أجابها قائلاً:

- ولماذا يا فاطمة تبكين؟ فوالله قد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلقاً وأولهم إسلاًماً

عندما رأت رغبة أبيها في زواجها من علي قبلت فاطمة

عاد علي بن أبي طالب إلى رسول الله في اليوم التالي، وكزّر طلبه فسأله سيدنا محمد:

- وما عندك لتقدمه؟

يقصد ما لديه كمهر

فأجاب علي:

- لا شيء.

فقال له النبي محمد:

- أين درعك الذي أعطيتك إياه يوم بدر.

فأجابه علي:

- عندي يا رسول الله..

فطلب منه أن يبيعه ويرى ما يتحصّل عليه.

ونتوقف هنا أمام الأب الذي اختار لابنته شابًا، ورفض تزويجها ممن هو أكبر سنًا أو من رجل متزوج كما كانت العادة عند العرب في ذلك الوقت. اختار لها الأكثر علقًا ومن تربي في منزله ومن هو على دراية به وبأنه سيحسن معاملة ابنته.

ونتوقف أمام الابنة التي وثقت في قرار والدها ولم تناقشه .

عرض «علي» درعه للبيع فاشتراه منه عثمان بن عفان بمبلغ كبير يمكّنه من دفع ما يليق بصدّاق الزهراء. أعطاه أربعمئة وسبعين درهماً دفعها على كلها صدّاقًا وتمت الخطبة وأعطى النبي لبلال مبلغًا ليشتري ببعضه طيبًا وعطرًا ثم دفع الباقي إلى أم سلمة - رضي الله عنها - وهي إحدى زوجاته لتشتري ما يحتاج إليه العروسان من متاع وغيره..

أتوقف لحظات أمام الطيب والعطر.. الأب هنا قام بدور الأم وعلم أن الطيب والعطر للمرأة أمر أساسي، فحرص رغم فقر الزوج على أن يكون لديها منه.. فكل نساء الأرض يحببن العطر.. لفتة صغيرة جدًا، ولكنها تنم عن اهتمام شديد من أب محب.

طلب بعدها رسول الله من أنس بن مالك أن يدعو له أبا بكر وعمر

وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام كي يشهدوا على الزواج. ما إن زوّج رسول الله عليًا من فاطمة حتى خَرَّ على الأرض ساجدًا سجدة شكر لرب لعالمين.. وزع رسول الله التمر على الجميع ودعا لهما بالدعاء الذي نرّده حتى يومنا هذا:

"بارك الله لكما وعليكما وأخرج منكما الكثير الطيب".

تزوج على من فاطمة وكان منزلها يبعد عن منزل رسول الله فلم يطق الأب بعد ابنته عنه فأراد أن يجعلها تأتي وتقطن قربه، وعرف بهذا حارثة بن نعمان الأنصاري وكان يمتلك مجموعة من البيوت قُرب بيت النبي فتنازل لفاطمة عن أحد بيوته كي تكون قرب أبيها. فانتقلت إليه وأصبح منزلها ملاصقًا لحجرة السيدة عائشة.

عاش الزوجان في مودة ورحمة إلى أن كان الاختبار الأكبر في زواج فاطمة وعلي.. وكان والدها خير سند لها فيه.. أسلمت جويرية ابنة أبي جهل بن هشام المخزومية ونوى علي بن أبي طالب الزواج منها.. عرف الناس الخبر ونقلوه لفاطمة التي حزنت حزنًا شديدًا فذهبت إلى أبيها غاضبة وقالت له: "يُزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح على بنت أبي جهل".

بكت فاطمة بحرقة وقهر؛ فلا شيء في الدنيا من شأنه أن يحزن المرأة من زوجها قدر زواجه عليها، وهي رغم العادات المتوارثة إلا أنها أولاً وأخيرًا امرأة شعرت بغيرة ولا تريد أن يشاركها أحد في زوجها. وتأثر الأب لدموع ابنته وقال أمام أصحابه معلنًا موقفه بشكل واضح:

إنَّ عليًا خطب بنت أبي جهل. فبلغ ذلك فاطمة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت:

- "إنَّ الناس يزعمون أنَّك لا تغضبُ لبناتك وهذا علي ناكح بنت أبي جهل".

قال المسوّر: فشهدته صلى الله عليه وسلم حين تشهد فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال:

- "أما بعد فأني أنكخت أبا العاص ابنتي فحدّثني فصدّقني وإنّما فاطمة بضعة مئي وإنه والله لا تجتمع عند رجلٍ مُسلمٍ بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وبنتُ عدوِّ الله".

فأمسك علي عن الخطبة

في رواية أخرى أضاف (-صلى الله عليه وسلم-) إلى ما سبق:

"وإني لستُ أحزّمُ خللاً، ولا أجلُ حراماً، ولكن والله لا تجتمع ابنةُ رسولِ الله، وابنةُ عدوِّ الله مكاناً واحداً أبداً"

فصرف علي نظره عن الخطبة، وعادت المياه إلى مجاريها بين الزوجين لتصبح فاطمة مثل أمها خديجة زوجة وحيدة لزوجها لم يتزوج عليها امرأة أخرى.

لو فكرنا قليلاً ما الذي جعل سيدنا محمد يرفض هذه الزيجة؟.. الإجابة في عبارة رسول الله عندما قال "ما يؤذي فاطمة يؤذي". .. وأذية رسول الله محرمة علينا.. وما الذي يؤذي فاطمة؟.. الغيرة.. فهي امرأة تيّمت صغيرة وليس لها من تشكو له والغيرة من طبع النساء وتدفعهن لتصرفات غير مقبولة في أوقات كثيرة، ولا يجوز لابنة رسول الله بحكم موقعها أن تتصرف تصرفاً سيئاً لها أو لأبيها. ومن هنا تحرّك الأب ولم يجبر «علي» على شيء بل قال له فقط ألا يجمع بينهما. لم يمنعه من الزواج من أخرى شرط تطليق ابنته. وترك علي خطبة ابنة أبي جهل.

بعد وفاة السيدة فاطمة تزوّج سيدنا علي من نساء عدة، ولكنه لم يجمع مع السيدة فاطمة امرأة أخرى..

إضافةً إلى ما سبق فإن سيدنا «علي» كان يحب السيدة فاطمة حبّاً شديداً وزواجه من أخرى لم يكن له سببٌ إلا تقليد متبع عند كثيرين وليس سبباً عاطفياً.

سأند محمد ابنته بعد أن استنجدت به فكان سندها وظهرها أمام زوجها وعشيرتها.. فبقيت لعلّ الزوجة والحبّية.. حتى وافتها المنية.

كانت فاطمة من كثرة الفقر والإعياء تمرض، حتى إن بلال ابن رباح مؤذن الرسول مرّ عليها يومًا وكانت مريضة، ورغم هذا تطحن الرحي وابنها قريبا يبيكي فطحن لها كي يريحها حتى إنه تأخر عن إقامة الأذان..

الرسول نفسه كان يمر في أحيان كثيرة بعلي وفاطمة ويجدهما يعملان في المنزل فيريح فاطمة ويتولى بعض أعمالها عنها.. إنها الرحمة التي تجعل الأب يشعر بابنته ويجعل الابنة تشعر بأبيها؛ لذا صدق من أسماها أم أبيها..

تتوالى الابتلاءات على رسول الله وفاطمة. في السنة الثامنة من الهجرة تموت زينب أخت فاطمة وتحزن عليها فاطمة كثيرًا إلا أنها تأخذ إمامة ابنتها وعلي ابنها وتهتم بهما كما تهتم بولديها..

وفي السنة التاسعة من الهجرة تذهب أم كلثوم إلى خالقها هي الأخرى.. وقبلهما كانت رقية قد توفيت لتصبح فاطمة وحيدة دون أخوات.. ودون أمها..

بكت فاطمة كثيرًا، ولكنها استعاضت عن كل هؤلاء بالأب.. السند..

كانت فاطمة تشعر بمدى حزن أبيها على فقده؛ فقررت أن تكون له السند والرفيقة والمعينة. رافقته في بيعاته وشاركته تفاصيل حياته..

وكان محمد يحب ابنته حبًا جفًا.. ما إن يراها حتى يقوم ليرحب بها ويقبلها وهي تفعل نفس الأمر معه.. وكانت نساء الرسول أن اردن الشكوى من أمر ذهبن إلى فاطمة مثلما حدث عندما شعرن أنه يحب عائشة أكثر منهن فأرسلوا إليه فاطمة وهو بصحبة السيدة عائشة لتخبره أن نساءه يتذمرن من تفضيله للسيدة عائشة عليهن.. وكان رده عليها:

- "ألا تحبين ما أحب؟"

قالت:

- "بلى".

قال:

- "فأحبي هذه". - يقصد عائشة

كان الرسول في مرضه يفرح كثيرًا لرؤية أحفاده ويبتسم لهم رغم الألم ويلاطفهم. وبعد كل زيارة كانت تعود إلى منزلها حزينة ومهمومة.

عندما كان على يسألها عم بها فتجيب:

- "أشعر بدنو أجل رسول الله".

عن عائشة أم المؤمنين، قالت: "إنا كنا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عنده جميعًا، لم تغادرمنا واحدة، فأقبلت فاطمة عليها السلام تفسحي، لا والله ما تحفى مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآها رحب قال:

(مزحبا بانتي)

ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها (أي قال لها سرًا)، فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى حزنها سارها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها أنا من بين نسائه:

- "حُصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسُر من بيننا، ثم أنت تَبكين، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها:

"عما سارك؟"

قالت:

"ما كنت لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره".

فلما توفيتي، قلت لها:

"عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي بِعَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا أَحْبَبْتَنِي".

قَالَتْ:

"أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ".

فَأَحْبَبْتَنِي، قَالَتْ:

(أَمَّا حِينَ سَأَرْتَنِي فِي الْأَمْرِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَحْبَبْتَنِي: (أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِيَ اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعَمَ السَّلَفِ أَنَا لَكَ).

قَالَتْ:

"فَبَكَيْتُ بِكَائِي الَّذِي رَأَيْتُ".

فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَأَرْتَنِي الثَّانِيَةَ، وَقَالَ:

"يَا فَاطِمَةُ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟"

"ثُمَّ سَأَرْتَنِي فَأَحْبَبْتَنِي أَنِي أَوَّلُ مَنْ يَتَّبِعُهُ مِنْ أَهْلِهِ فَضَحِكْتُ"

وَقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ وَذَهَبَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَبَكَتْ فَاطِمَةُ بِكَاءٍ شَدِيدًا وَقَالَتْ:

"يَا أَبَتَاهُ مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ مَاوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ إِلَى جَبْرِيلَ نِنْعَاهُ"

تَذَكَّرَ أَنَّكَ حَمَلْتَ كِتَابَ وَأَلْقَيْتَ عَلَيْهِ مَحَبَّةَ مِنِّي مِنْ مَوْقِعِ مَكْتَبَةِ بَيْتِ الْحَصْرِيَّاتِ أَكْبَرِ مَكْتَبَةِ لِلْكَتَبِ وَالرَّوَايَاتِ الْحَصْرِيَّةِ وَالْمُمَيِّزَةِ وَالْجَدِيدَةِ وَالنَّادِرَةِ وَلِتَحْمِيلِ الْمَزِيدِ ادْخُلِ عَلَى جُوجَلِ وَاكْتَبِ فِي خَانَةِ الْبَحْثِ مَكْتَبَةِ بَيْتِ الْحَصْرِيَّاتِ هُنْظَهْرُكَ .

السند - الابن

(١)

إسماعيل ابن إبراهيم

- ١ -

"وولده ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة، وأوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة، فخر ساجداً لله."

ابن كبير

عندما نتحدث عن مثال للابن السند لأبيه أو أمه، لا بُدَّ وأن نذكر سيدنا إسماعيل.. جاء ذكر سيدنا إسماعيل في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة منها مرات عديدة لمدح خلقه عليه السلام.

تجارب حياة إسماعيل كلها التي سمعنا عنها أو قرأناها مرتبطة بأبيه.. من قبل ولادته حتى.

والدته هي السيدة هاجر.. يعتقد أنها في الغالب كانت أميرة مصرية استعصمت بعد أن أسرت فأصبحت جارية استعصى على الملك أن يأخذها غصباً فاهداها للسيدة سارة بعد أن حاول معها هي أيضاً، وكان يصاب بالشلل في كل مرة يحاول الاقتراب منها.

ذهبت هاجر مع سارة وعاشت معها في مدينة الخليل في فلسطين.. وارتبطت السيدتان برباط صداقة ومحبة.. حتى إن سارة اختارت هاجر لتلد لإبراهيم ولذا يؤنس وحدثهما..

وفعلًا.. تزوج إبراهيم من هاجر.. وما صنعتها الأيام من تقازب ضيِّعته الغيرة في لحظات.. بمجرد أن انتفخ بطن هاجر بدأت الدماء تغلي في عروق سارة..

واتى إسماعيل إلى الدنيا. وإسماعيل اسم عبري معناه هو "سمع الله"
ينطق عندهم بالشين ومعناه يسمع الله .

ولعل المقصود بالاسم أن الله قد سمع دعاء إبراهيم ورزقه بالولد مع
قدوم إسماعيل ازدادت أكثر فأكثر غيرة سارة من هاجر حتى إنه يقال إن
السيدة سارة أقسمت أن تقطع أحد أعضاء السيدة هاجر. ولما هدأت قليلاً
سألت سيدنا إبراهيم:

- ماذا أفعل في قسمي هذا؟

فقال لها:

- "اثقبي لها أذنيها تكوني قد أبررتِ بقسمك".

فثقبت أذنيها وأبستها قرظاً أي حلقة فصارت أكثر جمالاً فاشتدت غيرة
السيدة سارة منها أكثر فأكثر.. ويُعتقد أن أول من ثقبت أذنيها من بنات
حواء هي السيدة هاجر رضي الله عنها.

مرت الأيام وغيره سارة لا تهدأ. كانت في كل مرة ترى فيها إسماعيل
تتذكر عقمها ورحمها الذي يرفض أن يمنح إبراهيم ولداً. مؤمنة هي بقضاء
الله، ولكن لا أحد يستطيع أن يلوم النفس البشرية الضعيفة والمرأة بطبعها
غيورة. فكيف وهي ترى امرأة أخرى تنجب لزوجها طفلاً وهي لا تستطيع؟
وتأتي اللحظة الفاصلة في حياة هاجر التي أصبحنا اليوم نُطلق عليها لقب
"أم العرب". يخبرها زوجها إبراهيم أن تستعد لسفر طويل يقومان به معاً،
فتجهز مخزوناً من التمر والماء استعداداً لرحلة كانت الامتحان الأكبر في
حياة هذه الأم وطفلها الرضيع .

-٢-

(فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) (سورة البقرة - الآية ١٣٧).

أولى اختبارات إسماعيل كانت وهو طفل رضيع.. سار والده به مع أمه
في مناطق كثيرة.. رحلة طويلة بدأت من فلسطين وانتهت في الجزيرة

العربية. رحلة طويلة لطفل صغير بدأ حياته باخذ اول الدروس دون ان يعي. أو لعله وعى. فمن منا يستطيع ان يجزم ان طفولتنا الأولى أو حتى فترة وجودنا في رحم أمنا لم يكن لها تأثير كبير على حياتنا؟

اول درس تعلمه إسماعيل أننا لسنا أصحاب قرار فأبأؤنا هم من يقررون لنا في مراحل عمرنا الأولى.. النبي إسماعيل بعيدًا عن كونه نبيا ابن نبي، هو طفل قرر والده أن يسافر به من المكان الذي ولد فيه وهو أرض كنعان وهي الأرض التي تقع فيها اليوم فلسطين وغزة وأجزاء من سوريا ولبنان.. إلى الجزيرة العربية.. من أرض خضراء إلى صحراء جرداء.

ويصل الثلاثة إلى مكة.. ليكتشف الطفل أن أباه ارتحل به إلى مكان ناء مع أمه.. ويطلب إبراهيم من هاجر أن تنزل من على دابتها.. ليتركها ويعود..

أحاول هنا أن أصف المشاعر فنحن جميعًا مسلمون بأنها إرادة الله كي تكون هاجر سببا هي وابنها في إعمار مكة.. ولكنها في النهاية امرأة يقرر زوجها تركها وحيدة في صحراء جرداء مع ابنها.. ويرحل..

تصاب هاجر بصدمة وتركض وراء زوجها تسأله:

- "أتركنا؟"

فلا يجيبها ويمضي.. وتكرر سؤالها.. ومرة أخرى لا يجيب.. تكرر مرات عدة دون إجابة إلى أن تسأله:

- "أمرك الله بهذا؟"

هنا يجيبها إبراهيم:

- "نعم".

فتقول عبارتها الشهيرة:

- "إذا لن يضيعنا".

يتركهما إبراهيم، وعندما يبتعد عنهما يقف ويدعو ربه بأن يرسل إليهما من يسكن معهما ويعمر الأرض.. يدعو لهما برزق وفير من الثمرات.. يدعو، موقناً من الإجابة..

من المؤكد أن هذا القرار كان صعباً جداً على الزوج والأب.. ولكنه كان أمراً إلهياً وإبراهيم لا يستطيع أن يعصي لربه أمراً.

منتهى اليقين من هاجر أن الله لن يضيعها ورضيعها ومنتهى التسليم من إبراهيم أن أمر الله نافذ مهما بلغت درجة صعوبته.

رضيت هاجر بقضاء الله وشيدت خيمة لها ولابنها واستخدمت مخزونها من الماء والطعام..

وبدأ الاختبار الصعب.. وأي أمر أصعب على البشر من الجوع والعطش.. فكيف إن كان صاحب الاختبار طفلاً.. كان مخزون هاجر من التمر والماء قد نفذ.. وبدأ صراخ الطفل يعلو ويعلو ثم يخفت من العطش والضعف..

خافت سارة على رضيعها وشعرت وكأن ملاك الموت يقترب من ابنها فبدأت في الجري نحو الصفا أقرب جبل إليها تصعده وتستقبل الوادي لتنظر عليها ترى أحداً يعينها. تهبط من جبل الصفا، وتهول مرة أخرى لتصل إلى الطرف الآخر عند جبل المروة وتصعد إلى قمته وتنظر عليها تجد من يغيثها ولكن لا حياة حولها مهما نادى..

وبعد سبع مرات من الهرولة بين الصفا والمروة يأتي الفرج. يرسل الله إليهما جبريل عليه السلام، ليضرب برجله الأرض، وتنفجر منها عين ماء ليس كمثلهما عين، سُميت زمزم، وأخذت هاجر تحوضه؛ أي تجمع الماء داخل مكان مثل الحوض، وتشرب هي وإسماعيل - عليهما السلام - حتى شبعوا.

أول اختبار في حياة الطفل إسماعيل مرّ بسلام وترك آثاره حتى يومنا هذا.. هذا الاختبار خلّده رب العلمين في صورة مناسك يقوم بها كل من يقوم بالعمرة أو بالحج.. وكان المطلوب من الجميع توجيه تحية أثناء

السعي للأُم الوحيدة الصابرة. ثم يشرب من زمزم ويدعو فيستجيب الله
وكان الملائكة لا تزال تحلق فوق البئر لتنقل دعاء شاربي زمزم إلى رب
العباد.

- ٣ -

(وفديناه بذبح عظيم) (سورة الصافات. الآية ١٠٧).

ومع زمزم جاء الخير.. أتت قبيلة جرهم من اليمن. رأت القافلة أثناء
سيرها طيرًا يبحث عن ماء.. تتبعوه حتى وجدوا زمزم والطيور تحلق
دومًا حول المياه..

استأذنوا هاجر في أن يستوطنوا في هذا المكان. فرحبت.

شعرت هاجر بسعادة عارمة لقدم قبيلة جرهم واطمأنت إلى وجود بشر
حولها وحول ابنها.. الونس يطمئن الوحيد.. فكيف أن كانت امرأة بصحبة
طفل لا تجد حولها من يحدثها أو يغيثها عندما تحتاج.. وبعض الناس لنا
حياة..

سبَّ الطفل وسطهم وتعلم من قبيلة جرهم اللغة العربية..

عاش إسماعيل وهاجر في مكة، وقال البعض إن إبراهيم كان يزورهما
مرة كل شهر وفي قول آخر غاب سنوات ولم يعد إلا بعد أن أصبح
إسماعيل شابًا في السادسة عشرة من عمره.. كما يعتقد أن إبراهيم قد قام
بختان إسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره، ومعه مجموعة من
صبية القبيلة، ومن هنا تحوّل ختان الذكور إلى سنة.

حسب ما جاء في كتب الأثر فإن إبراهيم كان أول من أختتن ليسن
السنة، وكان عمره وقتها مئة وعشرين سنة. ويقال أيضًا إن إبراهيم هو
أول من قص شاربه وأول من شاب شعره وأول من أكرم ضيوفه.

اختبار ثانٍ لطاعة الابن لأبيه ولربه.. ولا أعتقد أن هناك اختبارًا عبر
التاريخ للطاعة أشد من اختبار إسماعيل على يد أبيه إبراهيم.

بدأ الاختبار برؤيا.. ورؤى الأنبياء حق.. رأى إبراهيم أنه يذبح ابنه في المنام.. استيقظ وأخذ يردد لنفسه:

"هي مجرد أضغاث أحلام".

وعاد إلى النوم ليتكرر الحلم مرتين بعدها.. وفي المرة الثالثة فهم أنها رؤيا وأمر من الله فجلس يسبح ويصلي ويفكر كيف يخبر ابنه بالأمر..

كان إبراهيم مطيعًا لربه ولكنه أيضًا أب.. والأمر هذه كيف سيكون رد فعله.. طلب منه الحضور وأخبره.. أنه قد رأى في المنام أنه يذبحه.. وسأله عن رأيه: (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى)

أتوقف في الآية الكريمة أمام "انظر ماذا ترى".. هنا يطلب الأب رأي ابنه. هو أمر إلهي مؤكد، ولكن أراد القرآن إظهار أن في أمر الله رضا من الطرفين لا إجبار من طرف لطرف موافقة طرف لا تعني موافقة الطرف الآخر: كان على الطرف الثاني أن يوافق أيضًا. درس لكيف تكون علاقة الأب بالابن.. منتهي الديمقراطية..

"انظر ماذا ترى". ولم يقل: "سأفعل هذا شئت أم أبيت لأنه أمر إلهي".

كل لفظ في القرآن أتى لسبب.. وهنا كي يعلم الآباء كيف يخاطبون أولادهم في قرارات الحياة الهامة..

وماذا كان رد الفتى؟ الذي يعتقد أنه كان في السادسة عشرة من عمره؟ بكل شجاعة وتسليم قال لأبيه:

- (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين)

إسماعيل الشاب الذي لا يزال في مقتبل العمر.. نبي ابن نبي.. فهم أن أمر الله لا بُدَّ أن يطاع..

والأهم أنه كابد تفهّم مدى صعوبة التنفيذ على أبيه.. تفهّم الألم الذي يعتصر قلبه والصراع ما بين حبه لولده وطاعته لربه..

من المؤكد أن إسماعيل كان خائفًا هو الآخر.. كيف لا يخاف ووالده يخبره أنه سيذبحه؟؟ مهما بلغت قوة الصبي ومهما بلغ يقينه إلا أن الموت له رهبة.. وأي رهبة!

لم يكتف إسماعيل بالتحكم في خوفه بل أكثر من هذا، قرّر التحلي بالشجاعة لمَد يد العون لأبيه..

وذهب الابن مع أبيه.. سار خلفه مستسلمًا لمشيئة ربهما..

لم يكن تنفيذ الأمر سهلًا.. إضافة إلى الصراع الداخلي المحتدم بين طاعة الرب ومشاعر الأب كان للشيطان دورٌ في محاولته لإضعاف إبراهيم.. لم يتركه بل بدأ يوسوس له.. عندما همّ عليه السلام بتنفيذ رؤياه بذبح ابنه اعترضه إبليس في ثلاثة مواضع ليمنعه من ذبح ابنه وتنفيذ ما أمره الله به، فرماه إبراهيم بسبع حصوات في هذه الأماكن التي يقوم الحجاج فيها برمي الجمرات.. كزّر إبليس المحاولة ثلاث مرات، وفي كل مرة كان إبراهيم يرميه بسبع حصوات. ومن هنا أصبح هذا الأمر جزءًا من مناسك الحج.

حتى وصلا إلى صحراء قاحلة، يعتقد أن المكان كان هو نفس المكان الذي ترك فيه إبراهيم هاجر وإسماعيل عندما أحضرهما إلى مكة. نظر إبراهيم إلى إسماعيل وقلبه يدق في مزيج ما بين قلقٍ وحزنٍ فبادر إسماعيل الابن الذي من المفترض أن يُذبح بعد قليل بطمأنة أبيه قائلاً: - "يا أبت.. لا تنظر إلى وجهي وأنت تذبحني فتتردد، فلا تنفذ أمر الله".

الابن هنا هو من ينصح أباه. أيّ إيمان هذا بالله؟ وأيّ إيمان بأبيه وبرسالته وبضرورة طاعة الخالق؟. شعر الابن بمدى قسوة الموقف على أبيه فطلب منه ألا ينظر إليه. لم يكتف إسماعيل بهذا بل نصح أباه بسنّ السكين ليكون ذبحه أسهل عليه.. يعني حتى لحظاته الأخيرة يفكر كيف يكون سنًا لوالده في مهمته الصعبة.

- "واحد شفرتك" أي اجعل السكين حادًا سريع القطع حتى يكون أهون

عليك. وصل الأب والابن قربَ صخرة، وقَرَّر أن يكون هذا هو مكان الذبح..
نظر لابنه نظرة وداع يملأها الحنان، ثم ألقى به على وجهه كي لا يرى
تعابيره، وكي لا يلمح ابنه الشكين وهي تقترب منه.

استسلم إسماعيل مفوضًا أمره لله.. واقترب الأب ممسكًا بالشكين من
رقبة ابنه.. مضحيا به إرضاءً لرب العالمين ليسمع صوتًا يقول له أن يرفع
الشكين وأن الله سيجزي المحسنين.

أبعد إبراهيم الشكين فورًا والتفت جهة الصوت ليجد الملاك جبريل ينزل
من السماء ومعه كبش أبيض اللون قدّمه فداءً لإسماعيل.

(وفديناه بذبح عظيم) (سورة الصافات، الآية ١٠٧)

-٤-

"شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربّه عزّ وجلّ حَزَّ مكة، فأوحى الله إليه:
إني سأفتح لك بابًا إلى الجنة إلى الموضع الذي تُدفن فيه يجري عليك
روحها إلى يوم القيامة".

عمر بن عبد العزيز

مضت السنوات، وبدأ اختيار جديد للأب والابن. حرف واحد اختلف،
فهذه المرة هو ليس اختبارًا بحرف الباء بل اختيار بحرف الياء.. اختار الله
إبراهيم وإسماعيل لبناء الكعبة المكرمة، البيت العتيق، أو الحرم، البيت
المعمور.

كلها أسماء للكعبة التي سُميت بالكعبة لأنها مكعبة الشكل.

هذه المرة الأمر لم يكن صعبًا.. كان يحتاج إلى مجهودٍ بدنيٍّ شاقٍّ يقوم
به عددٌ من الرجال وليس رجالان فقط.. لكنّ الرجلين نجحا سويًا
ولوحدهما في بناء الكعبة.. وكيف لا وهما يعلمان أن اختيارهما لهذه
المهمة تشريفٌ لهما؟

كانت قواعد البيت الحرام موجودةً من قبل، لكنها مع مرور الزمن

اندثرت وغطتها الرمال وأصبحت تحت الأرض.. فها هو الله سبحانه وتعالى يرى إبراهيم مكان تلك القواعد ويعرفها له ليبحث عنها ثم يبني فوقها بقية البيت.

بنيت الكعبة أكثر من مرة في التاريخ، واختلف العلماء حول أول من بناها، أشهرها وأكثرها تداولاً أن أول من بناها هم الملائكة، من أجل الطواف بها قبل هبوط آدم على الأرض بعد خروجه من الجنة بحوالي ألفي عام.

ومن العلماء من قال إن أول من بناها هو آدم، ومنهم من قال بأنه شيث ابن آدم، وبعض العلماء أقروا بأن إبراهيم وابنه إسماعيل هما أول من بنى الكعبة، مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم.

قام كل من الأب وابنه بحفر أساس الكعبة بالمعاول، تعاوناً سوياً في رفع قواعدها، حيث كان إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، وما إن أصبح من الصعب على إبراهيم رفع الحجارة للأعلى قال لابنه إسماعيل: - "يا بني، أحضر لي حجراً أضعه تحت قدمي لأتمكن من إتمام ما بدأت به".

هذا الحجر هو المكان الذي نسميه اليوم بمقام إبراهيم: وفي هذا الحجر أثر لقدمي النبي إبراهيم، والمقام هو الصخرة التي كان يقف عليها لبناء الكعبة عندما ارتفع البناء عن قامته، وقد حركت بعد تجديدات أجريت في مكة من مكانها الأصلي لتترك الطريق للطائفين وهو المكان الذي يستحب للطائف أن يصلي خلفه ركعتين بعد الطواف.

كان إبراهيم يبني كل يوم صفًا من الحجارة المتراسة جنبًا إلى جنب إسماعيل ياتيه بها وهو يضعها. استمر على هذا الحال إيامًا إلى أن تبقى مكان الحجر. ذهب إسماعيل يبحث، وعندما عاد وجد إبراهيم وقد وضع حجراً يختلف شكله عن الباقيين فسأله:

- "من أين أتيت به يا أبت؟"

فأجابه:

- جنبريل أتاني به..

هناك حكايتان عن المكان الذي أتى جنبريل بالحجر الأسود منه. الأولى تقول إنه أتى به من الجنة مباشرة وقول آخر إن جنبريل أتى بالحجر الأسود من الهند، إذ أن آدم عندما هبط من الجنة هبط إلى الهند والحجر معه فأحضرها جنبريل لإبراهيم من حيث تركها آدم ولكن المتفق عليه أن الحجر الأسود أو الأسعد - كما يطلق عليه أيضًا - مصدره الأساسي الجنة.. نزل الحجر الأسود من الجنة ولونه أبيض من الثلج إلا أن خطايا بني آدم سؤدته .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "الحجر الأسود من حجارة الجنة، ليس في الدنيا من الجنة غيره، ولولا ما مسّه من دنس الجاهلية وجهلها ما مسّه ذو عاهة إلا برئ".

-0-

(واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) سورة مريم - الآيات ٥٤ - ٥٥

عاش إبراهيم مئة وخمس وسبعين سنة ثم مات..

ابنه إسماعيل كان قربه في أيام مرضه الأخيرة، ومعه أخوه من السيدة سارة إسحاق قاما بدفنه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر في قرية عفرون في الخليل، الحقل الذي اشتراه إبراهيم من رجل من بني حيث ليدفن فيه سارة التي توفيت قبله. وهو المكان الذي بني فيما بعد فوقه المسجد الإبراهيمي أو الحرم الإبراهيمي في الخليل، ومن يزور المسجد يزور قبر إبراهيم وسارة وابنه إسحاق وولده يعقوب.

وهناك بعض الروايات التي تقول إن يوسف ابن يعقوب وادم ونوح أيضًا

مدفونون هناك.

كان إسماعيل صادق الوعد، رسولاً ونبياً يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً..

أكمل حياته بالقرب من بئر زمزم ينشر الديانة الإبراهيمية في القبائل المحيطة.

وكان أوّل من رُوّض الخيول وركبها وهو أوّل من تحدث لغة عربية فصحة، ويعتقد أن هود هو أوّل من تحدّث العربية وقال آخرون إنه نوح عليهم جميعاً السلام.

إسماعيل هو أوّل من رمى بسهم، وكان الرسول محمد عليه الصلاة والسلام عندما يريد تشجيع الشباب على الرماية يقول لهم:

- "ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً".

ينتسب معظم العرب إلى سيدنا إسماعيل؛ لذا نقول دومًا: نحن أبناء إسماعيل.

أطاع إسماعيل والده حتى في زيجاته. فقد تزوج مرتين.

الأولى طلب منه أبوه إبراهيم أن يطلقها ففعل.. والثانية طلب منه البقاء معها ففعل.

كان بائناً بوالدته هاجر واعتنى بها حتى ماتت وهي في التسعين من عمرها ودفنت بالقرب من بئر زمزم.

مات إسماعيل عليه السلام في مكة المكرمة بعد أن أدّى رسالة ربه وبلغ ما أمره الله وأمر أباه إبراهيم بتبليغه، ودعا إلى دين الواحد الأحد، وإلى عبادة الله وحده، دُفن إلى جانب أمه هاجر قرب الكعبة وقد ذكر أن عمره كان يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة.

عاش هذا النبي مثلاً للابن الذي يتمناه كل أب، بائناً به، مطيعاً له، صادقاً،

مؤمنًا، مكملًا لرسالته ناشرًا وداعيًا.

ساند والده في بناء الكعبة.. بنى معه مكانًا أصبح أشهر مكان في العالم..

إسماعيل هو الابن النموذج لكل أب.. طاعة وسند وتكملة للرسالة..

كان إسماعيل من نعم الله على إبراهيم..

وهذه هي أخلاق الرسل.. فكيف برسول وابن رسول؟

اللهم اجعل أبناءنا سنًا لنا مثلما كان إسماعيل سنًا لإبراهيم.. اللهم
أمين.

تذكر انك حملت كتاب وألقيت عليك محبة مني من موقع مكتبة بيت
الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث
مكتبة بيت الحصریات هنظهرلك.

السند - الأخت

(١)

أخت موسى وهارون عليهما السلام

- ١ -

"كل موضع تحل فيه اجعل الله بين عينيك"

لعل أشهر الشقيقات في الكتب السماوية الثلاثة هي مريم أخت سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام.

اختلف العلماء والمفسرون في اسمها؛ فمنهم من يقول إن اسمها كان «مريم» بنت عمران، أو عمرا، وإن السيدة مريم العذراء سُميت على اسمها لأنهم قديقا وحديثا يسمون أبناءهم على أسماء الصالحين ممن سبقوهم. مريم أخت موسى جاء اسمها عدة مرات في التلمود. اعتبروها نبية مثل أخويها، مريم هو الاسم المتعارف عليه وإن كان هناك من العلماء من يؤكد لنا أن اسم أخت سيدنا موسى الحقيقي هو «كلثم».

لا يعرف كثيرون عنها إلا ما جاء في القرآن من حكايتها مع أمها ومع أخيها سيدنا موسى عليه السلام بعد ولادته.. ولكن لمريم أو كلثم أكثر من حكاية مع أخويها الاثنتين جاءت في الكتب السماوية وفي كتب التاريخ..

نبداً أولاً بسنها، كانت تقريباً في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها عند ولادة موسى، وكان هارون في الثالثة من عمره.. إذا كانت مريم أختها الكبرى.. يحكى عنها كيف أنها منذ أن كانت في الخامسة من عمرها وهي تساعد أمها في توليد اليهوديات وإنقاذ أطفالهن من بطش فرعون.

يروون في الكتب القديمة كيف أنها تنبأت بحفل والدتها في نبي يخلص بني إسرائيل؛ لذا فعندما وُلد سيدنا موسى وامتلاً البيت بالأنوار قبل الأب عمران ابنته مريم (أو كلثم) وقال لها:

- «لقد تحققت نبوءتك».

كانت مريم تعتني بأخيها الأصغر هارون وتساعد أمها في تربيته..
وهارون ممن ولدوا في عام العتق. إذ بعد قرار فرعون ذبح كل الأطفال
ذهب إليه وفد من كبار العلماء المصريين يطلبون منه التخفيف عن
الشعب حتى لا يندثر الناس وحتى لا يتأثر الاقتصاد فوافق أن يكون
الذبح سنّة والعتق سنه ..

يعتقد أن سيدنا موسى قد وُلدَ كما ذكر في "السنكسار الكنسي"؛ وهو
كتاب يحوي سير القديسين والشهداء وتذكارات الأعياد، وأيام الصوم،
مُرْتَبَة حسب أيام السنة، ويُقرأ منه في الصلوات اليومية.

وبحسب الاعتقاد المسيحي، سنة ١٦٠٥ قبل الميلاد.

وإنه بعد أن خباه أهله ثلاثة أشهر، أمر الله أمه يوكابد بإلقائه في اليم..

وهناك روايات شعبية تقول إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى موسى
الألواح بعدها بسنوات طويلة جدًا في نفس شهر ولادته.. ويفسرونه بأن
الله الذي أنقذ موسى من الموت اختار نفس الموعد لمنحه التوراة كرمز
لولادة جديدة.

- ٢ -

تعني كلمة التوراة حرفيًا "تعليم"، أو تدريس، وقد استعملت اللفظة في
الكتاب المقدس في بعض الأحيان بالمعنى العام كتعليم، لكنها تشير في
التوراة إلى الوحي الذي نزل على بني إسرائيل بوساطة موسى في جبل
سيناء (التثنية ٤: ٤٤).

كانت مريم (أو كلثم) في الحادية عشرة من عمرها عندما اشتدّ الحصار
على شعب بني إسرائيل، وكان فرعون يقتل كل مولود عندها أوحى الله
سبحانه وتعالى لأم موسى يوكابد، بأن تضع وليدها في الصندوق الخشبي،
ثم تلقيه في نهر النيل خوفًا من أن يعلم بأمره فرعون وجنوده ويقتلوه

في الحال.. أطاعت أم موسى أمر ربها ونفذته.

وضعت الأم طفلها في سَبَبٍ صغيرٍ وأسلمته لله..

ولأنها أمٌ ولأنها خائفة لم يطاوعها قلبها أن تترك ابنها وحده. طلبت من الأخت الصغيرة أن تقص أباها، أي تتبعه، وكان العرب يشتهرون بتقضي الأثر. طلبت منها تتبع الصندوق وألا يغيب عن عينيها لحظة. مسؤولية كبيرة على طفلة صغيرة أدتها بنجاح .

تذكر أنك حملت كتاب وألقيت عليك محبة مني من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب في خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

- ٣ -

سفر التكوين هو أوّل أسفار التوراة الذي يحتوي على أسفار النبي موسى الخمسة وهو جزء من التوراة العبرية، كما أنه أوّل أسفار العهد القديم لدى المسيحيين.

سفر التكوين يسرد الأحداث منذ بدء الخليقة إلى فترة نهاية حياة النبي يوسف. (بتصرّف من موقع المعرفة) .

ساق الله الطفل إلى قصر فرعون لتحبه «أسية»، زوجة فرعون، وتطلب من زوجها الاحتفاظ به.. فإله الذي ألقى رباطة الجأش في قلب أم موسى هو نفسه من وضع حب موسى في قلب أسية..

والله نفسه أيضًا هو من أمّد الأخت مريم بالشجاعة كي تقترب وتعرض أمها على القصر كمرضعة لموسى.. طفلة في الحادية عشرة تعرّض نفسها للخطر، ومن تلقاء نفسها تأخذ قرارًا بالاقتراب من الجوّاري..

تخيلوا هذه الطفلة وهي تفكر وتنفذ وتكون سببًا في عودة أخيها الرضيع إلى أمه عندما تقترح على القصر اسم يوكابد كمرضعة لموسى.

"تَوَكَّلْ عَلَى الرَّبِّ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَعَلَى فَهْمِكَ لَا تَعْتَمِدْ. فِي كُلِّ ظُرُقِكَ اغْرِفْهُ وَهُوَ يَقُومُ سُبُكَ". الكتاب المقدس: سفر الأمثال: ٣: ٥، ٦.

لم يذكر في القرآن الكريم عن أخت موسى وهارون عليهما السلام سوى أنها تتبعته واقترحت اسم والدتها على القصر لإرضاع. أما العهد القديم فقد حكى أكثر من مرة عن مراحل مختلفة من حياتها.

مريم أو كلثم كانت ثالث أخويها وكبيرتهم. عاشت مع أمها وأخيها هارون إلى أن عاد موسى إلى مصر بعد قتله اليهودي وفراره..

تزوجت من كليب أو كلاب أو كالب بن يوفنا، إذ اختلف الناس في نطق اسمه. هو أحد أتباع سيدنا موسى المخلصين، حكى عنه القرآن الكريم هو ورجل آخر في سورة المائدة في الآية ٢٣ دون ذكر اسمه، عندما تحدث سبحانه عن رجلين «أنعم الله عليهما» لأنهما نفذوا أوامر موسى هما يوشع بن نون، وكالب بن يافنة زوج أخت موسى عليه السلام .

يتحدث سفر الخروج وهو ثاني أسفار العهد القديم، عن مريم كنبية، ويعتقدون أن لها دورًا كبيرًا في دعوة أخيها.

في لحظة شق البحر طلب موسى من الرجال ترديد آيات معينة.. وطلب منها أن تقولها للنساء كي يرددنها وراءها..

في مشهد أشبه بمشهد السينما التاريخية التي تبهرنا، أمسكت مريم بذقن تضربه وتردد آياتها كنوع من التسبيح..

كانت جميع النسوة وراءها يحملن الدفوف وهن يرقصن. ومريم تردد لهن: "رنموا للرب".

سبحت مريم والنساء خلفها يرقصن بما يشبه الصلاة الجماعية..

وببركة الرب وقدرة التسبيح، وصل الجميع إلى الجانب الآخر من الشاطئ بسلام..

"لأنه ليس شيء غير مُفَكِّن لَدَى اللهِ" - إنجيل لوقا ٣:١

شاركت مريم أو كلثم أخويها عليهما السلام في معظم مواقف حياتهما.. كانت مطيعة منقذة لأوامر أخيها النبي معينة له في مهمته، إلى أن كان ما جعل الله أو الرب سبحانه يعاقبها.

حدث خصام ما بين هارون ومريم مع موسى عندما اختار موسى سبعين شيخًا وسلمهم زمام القضاء والحكم بين الشعب. غضب هارون ومريم واعتقدا أن هذه بدعة جديدة اتخذها موسى بسبب تأثير زوجته بنت يثرون الكوشية .

والكوشية أي الإثيوبية هو اللقب الذي أطلقتته مريم على زوجة أخيها لأنها لم تكن راضية عن زيجته هذه ..

وهي الزوجة الثانية للنبي موسى حسبما يعتقد لأن زوجته الأولى «صيفورة» أو "صافورية" كانت من مدين.. هارون أيضًا لم يكن راضيًا عن هذه الزيجة..

اعتراض هارون ومريم كان على الكوشية نفسها، على شخصيتها ولون بشرتها الداكن لا على اقتران أخيها موسى بها، مع عدم الاتفاق مع الشخصية وليس اعتراضًا على فكرة الزواج..

وهناك رأيان حول من تكون الزوجة الكوشية:

الرأي الأول قاله معظم علماء الكتاب إن موسى لم يتزوج إلا من "صافورية" أو "صفورة بنت يثرون المديانية"، وكان أحد والديها كوشيًا، عندما عاد موسى إلى مصر تركها وولديه لفترة مع ذويها وبعد عبور البحر الأحمر عادت الزوجة إلى زوجها النبي موسى فأثارت سخط مريم وهارون اللذين لم يرياها من قبل.

وقال بعض المفسرين إن "صفورة" زوجة موسى قد ماتت، فتزوج من

المرأة الكوشية، وهو بهذا لم يخالف الشريعة، والنبي يوسف بن يعقوب تزوج أيضًا كوشية، وهذه الزيجة لم تمنعها الشريعة.

وقالوا إن "الزوجة الكوشية" كانت من الكوشيات الأفريقيات اللواتي جنن من مصر، أو إحدى الكوشيات الساكنات في بلاد العرب، إذ كان بعض الكوشيين وقتها يسكنون في جوار سيناء.

عودة إلى الإخوة الثلاثة.. إضافة لعدم رضاهما عن زيجة موسى، فإن هارون ومريم (أو كلثم) الذين كانا يعتبران نفسيهما نبیین؛ لأن الرب أوحى إليهما من خلال الرؤيا، شعرا بالغيرة على ما يبدو من أخيهما موسى، وكانا يرددان لبعضهما البعض:

- «هل كلم الرب موسى وحده، ألم يُكلمنا نحن أيضًا؟!»

شعرا بالغيرة رغم نبوتهما، ومعرفتهما بضرورة الترفع عن المشاعر السلبية. وهذا دليل على أن الأنبياء بشر. كانا يعتبران نفسيهما في مساواة موسى. وهنا كانت الخطيئة الكبرى التي أغضبت الرب منهما، لقد سقطا في الغرور والكبرياء وإثم الحكم على موسى كليم الله .

لاحظ موسى تغيّر معاملتهما له، ولكن قلبه لم يتغيّر نحوهما، صبر عليهما وتسامح. إلا أن غضب الرب على هارون ومريم كان عظيمًا..

عوقبت مريم عقابًا شديدًا.. أصيبت بمرض البَرَص وأصبحت بيضاء كالثلج وكان الله يرد على انتقادها لسواد الكوشية. ويعتبر البَرَص في الشريعة اليهودية عقابًا شديدًا، ويأمر دينهم بأن يُعزل الأبَرَص بعيدًا سبعة أيام باعتباره نجسًا إلى أن يبرأ من بَرَصه..

ولكن لماذا عاقب الله مريم النبوة ولم يعاقب هارون النبي بنفس المرض على نفس الخطيئة التي اشترك فيها مع مريم؟! - وإن كان البعض يقول إنه أصيب بالبَرَص فترة قصيرة ثم برئ منه - ..

لعل السبب في أنه لم يُضرب بالبَرَص أو برئ منه بسرعة أن مريم هي التي بدأت بالنميمة ضد موسى، ربما.. وربما يكون السبب في مكانة

هارون كرئيس للكهنة، إذ كان بحكم مسؤوليته في خدمة الكهنوت لا يمكن أن يُصاب بهذا المرض الذي كان سيحرمه من الخدمة التي استؤمن عليها، من منطلق الحفاظ على المصلحة العامة. ربما. اكتفى الرب بعقاب مريم أخته أمام عينيه كي يراها على هذه الحال، فتكون هكذا أعظم تذكير له على خطيئته.

وهذا ما حدث بالفعل، فبمجرد رؤية هارون لأخته وقد صارت برصاء كالثلج، صرخ مستنجدًا بموسى معتذرًا طالبًا منه أن يدعو الله أو الرب أن يشفيها ودعا فعلاً سيدنا موسى ربه لأخته فاستجاب الله لكليمه وشفأها. وأكمل الإخوة الثلاثة مغا رحلتهم في الحياة.

-6-

"إنني أقبل عطاياك وأصوامك حالما تتصالح مع أعدائك، حينما لا تحمل أي كراهية أو حقدٍ على أحد، وحين لا تدع الشمس تغرب على غيظك".

القديس إفرام السرياني

ماتت مريم أو كلثم في قادش، ودفنت هناك.

يقال إنها عندما عبرت بالنساء خلف أخيها موسى كانت في الثمانين من عمرها.. مريم النبوة التي اختارها الله منذ طفولتها كي يكون لها دور في حياة إخوتها.. وكأنه كان يُعدها لما هو آتٍ..

في المجتمع اليهودي الشديد المحافظة حكاية مريم أو كلثم دليل جديد يثبت أن الأنبياء يتعرضون لما نتعرض له من مشاعر بشرية مختلفة.

الأخت في حياتنا علاقة دماء واحدة.. تأتي إلى الدنيا من نفس الرحم.. الرحم الذي لا يمرُّ عليه ويعيش فيه إلا الإخوة.. هذا المكان المظلم الذي يعيش الجنين فيه مطمئنًا لأن دقات قلب الأم تُؤنس وحدته.

هذا المكان الذي منه نخرج للعالم هو نفسه الذي يخرج إخوتنا منه. كل واحد فينا يأتي إلى الدنيا بخصائصه وبصمته. ولكن يبقى الجامع بين

الإخوة هو المكان الذي أتوا منه. أتوا من نفس الرحم. فلنتذكره في لحظات الخلاف أو الصدام. ولنتذكر قواعد الأخوة:

الأخت هي التي تتشاجر معنا، ولكن يجب أن تكون أوّل مَنْ يدافع عنا..
الأخت هي التي لا ترضى عن قراراتنا، ولكن يجب أن تساندنا في الأزمات..

الأخت هي التي يجب أن تتواجد في الفرح والحزن والمرض وتفصيل الحياة الكثيرة..

الأخت هي من تحبنا كما نحن حين نشعر أن لا أحد في الكون يحبنا..
مريم صدّقت موسى حين قال إنه نبي الله.. أمنت به.. ساعدته وسارت خلفه.. ورغم الغيرة البشرية التي تحدث بين البشر إلا أن أخوتهم انتصرت..

أخطات، عوقبت، استغفرت، سامحها ودعا لها.. فزفع العقاب.. لذا كان الإخوة خير سند.. نعم الساند.. والمسنود..

السند - الأخ

(١)

هارون بن عمران

(قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني *
يفقهوا قولي) (سورة طه).

كلنا نحتاج إلى سند.. والأخ خير سند.. وحكاية سيدنا موسى مع أخيه
هارون خير مثال.. هارون كان أيضًا نبيًا.. لم يأخذ حقه في الكتابات مثل
موسى.. ربما لأن موسى هو النبي المرسل لنشر الديانة اليهودية.. موسى
هو كليم الله..

الذي أنزل عليه الألواح والوصايا العشر.. هو في مرتبة أعلى.. فحتى بين
الأنبياء هناك اختلافات.. فمنهم من كان نبيًا ورسولًا.. ومنهم من كان
رسولًا فقط.. وهناك أنبياء يطلق عليهم من "أولي العزم".

وهم يعتبرون سادة النبيين والمرسلين، وهم خمسة: النبي نوح عليه
السلام، النبي إبراهيم خليل الله، النبي موسى كليم الله، النبي عيسى عليه
السلام، وسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وهارون كان نبيًا أيضًا. وقام بدور كبير في حياة أخيه. وأحلى إخوة تلك
التي جمعت بينهما في الدم وفي النبوة وبدأت الحكاية عندما سمع
فرعون نبوءة تقول إنه سيولد من يأخذ منه ملكه. خاف وارتعد فأصدر
قرارًا بقتل كل المواليد الذكور سنة بعد سنة..

هارون هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم.. يكبر موسى بثلاث سنوات.. ولهما شقيقة تكبرهما هي مريم..
ويعتقد أن موسى كان يعلم من تكون عائلته الحقيقية لأنه كان على
اتصال بهم.

نعرف الكثير عن طفولة هارون لأن التركيز في العهد القديم وفي كتب

التاريخ كان على حياة موسى الذي كان يعيش في قصر فرعون..

تربى موسى في القصر في عز ونعيم.. وتربى هارون وسط أسرته في حي اليهود من الفقراء..

لم يعيشا معًا في سنين حياتهما الأولى إلا أنهما بعد ذلك سارا على درب واحد يدا بيد..

مرت سنوات على موسى في القصر إلى أن حدث ما حدث من قتله للرجل المصري وفراره إلى مدين.. فافترق الأخوان بشكل كامل ما يقرب من العشر سنين..

هارون هو أحد الأنبياء الخمس والعشرين الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة.. وتحديث عنهم العهدان القديم والجديد..

وُلد في مصر عام ١٤٣٩ ق.م.. واصل اسم هارون عبراني ومعناه الهر أو القط والواو والنون لتصغير الكلمة.. هذا هو المعنى الذي جاء في قاموس معاني الأسماء..

يعرف هارون بأنه اسم نبي..

حكاية موسى وهارون بكل أبعادها ليست حكاية دينية فقط.. فالبعد الإنساني موجود بشكل كبير في شكل العلاقة الموجودة بين الأخوين..

لماذا كان هارون أفصح من موسى؟ حسب ما ذكر ابن كثير فإن موسى كانت لديه لثغة في اللسان بسبب تناوله جمرة عندما كان طفلًا مما نتج عنه شدة في التعبير.

عندما بدأ موسى في نشر الدعوة اختار هارون بعد استئذان الله وزيرًا له.. وكلفه بمهام دينية في قبيلته ليصبح كبير كهنة بني إسرائيل.. فكان هارون يذهب إلى أسباط اليهود وشيوخهم، ليتكلم أمامهم بالكلام الذي قاله الرب لأخيه.

(واجعل لي وزيرًا من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري) (سورة طه).

بداية حكاية هارون مع موسى حسبما نعرفها كما جاءت في الكتب السماوية عندما كلف موسى بمهام النبوة وعاد إلى مصر مسقط رأسه. اختار موسى هارون وزيرًا. ثم متحدثًا باسمه أو نيابة عنه كان هارون أكبر إخوته، وكانت عائلته من بني قهات وهي أكبر قبائل اللاويين. وهم نسل لاوي الابن الثالث ليعقوب وليئة أو ليا كما تُنطق وتكتب في أيامنا .

اعتبر منذ شبابه قائدًا لجماعته وكاهنَ بيته وسمي باللاوي، ورغم هذا إلا أن تفاصيل حياته تقريبًا مجهولة لنا في السنوات الثمانين الأولى من عمره.. لا يبدأ ذكره في الكتب المقدسة إلا بعد بلوغه الثالثة والثمانين من العام عندما اعتذر موسى من الرب كما جاء في الإنجيل عن عدم إمكانه قيادة شعبه المضطهد في مصر لثقل لسانه.

وطلب منه معونة أخيه له.. وكان قلب هارون رؤوفًا رحيماً، تميز بالرفق، وكان يتحلى بالحكمة والصبر. أما موسى فقد كان قويًا شديدًا، وهذا المزيج من قوة موسى، وصبر هارون، ولين قلبه كان ضروريًا جدًا لقيادة بني إسرائيل.

تتحدث الآيات القرآنية عن الأخوين وتصف علاقتهما في سورة مريم الآية ٥٢: (وههبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا)..

هذه الآية شديدة الجمال في التعبير عن شكل العلاقة بين الأخوين، أي أن هارون كان لأخيه موسى رحمةً أرسلها الله له.. والهبة رزقٌ ومنحةٌ.. عندما قال سبحانه وهبنا له أي رزقناه أخًا نبيًا رحمةً مثًا به.. والأخ العون والسند منحة ورزق..

وقال سبحانه في سورة القصص الآية ٣٥: (سنشد عضدك بأخيك) أي سنقوي أمرك، وهي اختصارٌ لفكرة السند.. فالمرء يصبح أقوى بوجود

أخيه..

عندما أمرهما الله بالذهاب إلى فرعون قال لهما:

(فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) (سورة طه - الآية ٤٤).

ووجه كلام الله سبحانه تعالى لموسى وهارون معاً.. بمعنى أن مهمتهما مشتركة..

لم يقل لهما تشاجراً مع فرعون أو تعاملًا معه بعنف بل قال لهما قولاً له قولاً لنا. لأن الأصل في التعامل هو اللين. لأن الإنسان مخلوق من طين، ومن المفترض أن تكون الكلمة الطيبة مثل قطرات المياه التي تعيد التشكيل .

ولنتخيل صعوبة هذا الموقف على موسى.. هو يأتي إلى الملك في قصره، وهو محاط فيها بعبيده وجنوده وحرسه.. فرعون الجبار الذي يقول للجميع (أنا ربكم الأعلى) (سورة النازعات الآية ٢٤) يقف أمامه وأمام أتباعه وحيثاً بصحبة أخيه ليخبره أن هناك إلهاً آخر ينازعه ملكه، وأنه هو المكلف بنشر دعوته هذه.. الدعوة التي تقول للناس لا تقدسوا الفرعون بل الله..

أي قدر عالٍ من الجرأة يتطلبها هذا الموقف من الأخين؟ بل أي درجة عالية من الإيمان؟

أما هارون فهو الأخ الذي خاطر بحياته وكان يعلم جيداً أن فرعون قادر على القاء القبض عليهما في لحظة وزجهما في السجن. لم يفكر في المخاطر بل آمن بأخيه. كان له سند. ولم يتركه وحيداً..

ولأن طرق الإقناع في تلك المرحلة كانت بالمعجزات، وكل دين عندما أتى رسول ليبشر به، كانت له أدوات إقناع تتفق وطبيعة الناس في تلك المرحلة، وبما أن شعب موسى كان غليظاً ليس باللين، فقد كانت المعجزات أحد أهم وسائل الإقناع.

ألقى موسى بعصاه فتحوّلت إلى ثعبان.. فكان ردُّ فعل فرعون:
- انت ساحر ولست برسول .

كان هارون فصيحًا وأكثر قدرةً على التعبير من موسى. كما كان لئین الطبع هادئًا ليس بحدة أخيه موسى، حكيمًا يحسن التصرف في الأزمات. وكان صادقًا أمينًا صالحًا، وفوق كل هذا كان معترفًا بنبوّة موسى واختيار الله له فكان مطيعًا له رغم أنه الأكبر سنًا..

حسبما جاء في سفر الخروج فإن هارون أصبح أداة موسى لصنع الكثير من المعجزات.. مثل تحويل مياه الأنهار إلى دم.. وصعود الضفادع. مدَّ هارون يده في مياه مصر فصعدت الضفادع وانتشرت في كل أراضي مصر..

وتوالى المعجزات التي كان أحد أهم أدواتها هارون.. ذراع موسى ومعه في كل مرة يرسل الله لفرعون دليلاً على غضبه..

عاش هارون حتى بلغ مئة وثلاث و ثلاثين سنة. ولوفاته حكاية مع أخيه موسى وكان القدر مُصرًّا على جمعهما في الحياة وما بعدها. روايات كثيرة قيلت عن موته تشبه الأساطير. منها رواية تقول إن موسى أخذ هارون إلى طور سيناء وهناك وجدا بيتًا على باب شجرة وعليها ثوبان، فقال موسى لهارون:

- "اطرح ثيابك، وادخل هذا البيت والبس هاتين الحلتين وثم على السرير"

نام هارون على السرير فمات..

قبض ملك الموت روحه

عاد موسى لبني إسرائيل ونقل إليهم خبر وفاة شقيقه فرفضوا تصديقه لحبهم الشديد لهارون.. واتهموا موسى أنه قتله لحبهم له..

دعا موسى ربه أن يُظهر لهم الحقيقة فقامت الملائكة بحمل سرير هارون

بين السماء والأرض حتى رآه بنو إسرائيل وتأكدوا من موته..

وهناك رواية لليعقوبي - وهو كاتب ومؤرخ عاش في زمن الدولة العباسية - أن بن هارون اليعازر بن هارون كان موجودًا مع موسى عند موت أبيه.

وقال عمرو بن ميمون وهو أحد رواة الحديث إن هارون قد مات قبل موت موسى عليه السلام في التيه، وكانا قد خرجا إلى بعض الكهوف.. فمات هارون ودفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل، فقالوا:

- "قتلته لحبنا إياه".

كما جاء في الكتاب المقدس أن الله قد أمر موسى أن يأخذ هارون، ويأخذ معهما ابن هارون اليعازر ويصعد بهما إلى الجبل، وهناك يخلع ثياب هارون الكهنوتية ويلبسها لابنه ولمَّا نَفَّذَ ذلك مات هارون، وانضم إلى آبائه وبكاه قومه ثلاثين يوما .

كان هارون محبوبًا من بني إسرائيل، تضرَّع موسى عليه السلام إلى الله عز وجل فأوحى إليه أن انطلق

بهم إلى قبره فإني باعته، ففعل.. فنأدى عليه موسى، فخرج من قبره ينفض رأسه، فسأله:

أنا قتلتك؟

قال:

- لا، ولكني مت.

قال:

- فغذ إلى مضجعك، وانصرفوا.

يعتقد أن المكان الذي دفن فيه هارون هو على قمة جبل "هور" كما يطلق عليه في الإنجيل، بالقرب من مدينة البتراء في الأردن ويحمل الجبل اسمه

أكرر: نفس السؤال الذي يسيطر على ذهني طوال كتابتي لحكاية موسى وهارون: ما كل هذه المعجزات التي اختبرها وعاشها بنو إسرائيل؟ أتراهم لهذا أطلقوا على أنفسهم شعب الله المختار؟ ولربما كان مختارًا لأن موسى عليه السلام كان كليم الله؟ وأنهم عاشوا مع اثنين من الأنبياء في نفس الوقت.

في حديث لرسول الله أنه عندما التقى هارون في السماء الخامسة أثناء رحلة الإسراء والمعراج.. قال له عليه الصلاة والسلام:

"مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح" ..

وهو خير وصف له

سيبقى هارون أفضل مثال يضرب للأخ السند.. يقوم بدور أخيه في غيابه وكأنه موجود، كما حدث عندما ذهب موسى ليكلم الله سبحانه وتعالى.. وسندك هو من تستطيع أن تستأنه على أهلك ومالك عندما تضطرك الظروف للسفر، أو عندما تمرض أو حتى تحين الساعة.

هارون كان "نصير" موسى، يشد من أزره، وأخوك يجب أن يكون لك "نصيرًا" ..

كل شخص مئًا يحتاج لشخص يسنده في الحياة.

هارون كان "رحمة" من الله لموسى. وأخوك يجب أن يكون رحمة لك، تحمد الله على وجوده في حياتك.

هارون كان "وزيرًا" لموسى وهنا المعنى أنه المعين، الذي يسدي النصح ويقوم بمهام لا يستطيع القيام بها الأخ الآخر لأي سبب.

أعطى الله سبحانه وتعالى هارون النبوة استجابةً لدعوة موسى كي يعيننا بعضهما على حب الله وإرضائه. وأخوك يجب أن يعينك على مرضاة الله..

كان موسى عصبياً إلى حد ما، فلقد خبرنا ردود أفعاله في مواقف عدة مثلما حدث عندما قتل المصري في بداية حياته عندما استجار به

العبراني.. ومثلما حدث عندما عاد من خلوته التي كلم فيها الله سبحانه، ونزلت عليه الوصايا العشر ووجد قومه يعبدون العجل ثار ثورة شديدة على أخيه، وهنا تحمّل هارون غضب أخيه، والتمس له العذر، وعندما هدأ موسى غفر لأخيه ما اعتبره تقصيرًا والتمس له العذر أيضًا..

والتماس الأعذار من الأمور التي ننساها كثيرًا في تعاملاتنا اليومية. الأخوة تبدأ برباط دم.. ولكن التوصيف الصحيح للأخوة هي أن تكون لأخيك نصيرًا رحيقًا، وله وزيرًا، باختصار:
كن لأخيك هارون، يكن لك موسى..